الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية
قسم الفلسفة

رقم التسجيل:............
الرقم التسلسلي:...............

العنـــــــــــوان:

فلسفة التداوليات الصورية وأخلاقيات النقاش عند يورغن هابرماس

ملخص مذكرة تخرج لنيل درجة الماجستير في الفلسفة

إعداد الطالب:

أودينة سليم

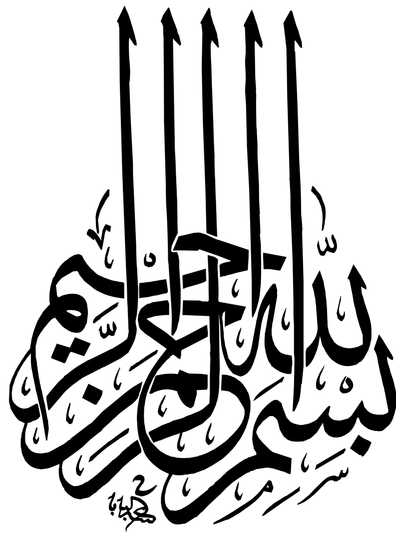
تحت إشراف:

الدكتورلخضِر مذبــوح

أعضـــاء لجنـــــــة المناقشـــــة:

الدكتورمحمد جديدي . أستاذ محاضر. جامعة قسنطينة. رئيســـا
الدكتور لخضر مذبـــوح. أستاذ محاضر.جامعة قسنطينة. مشرفا مقـــررا
الدكتورة نورة بوحناش.أستاذ محاضر. جامعة قسنطينة.عضوا مناقشا
الدكتور رشيد دحدوح.أستاذ محاضر. جامعة قسنطينة . عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1429-1430هـ/ 2008-2009م



تصديـــــــــــــــــــــر:

يحكي هيرودوت-أب التاريخ- أن ملـك الفرس داريـوس الأول استدعى الإغريق المقيمـين في بـلاده وسألـهم عن الثمـن الذي يرتضـونه كي يلتهمـوا آبـاءهم حين يتـوفون. وكان الإغريـق يحرقون موتـاهم، فأجابـوه بأنه لاشيء البتـة على والأرض يمـكن أن يغريهم بفعل هذا. حيـن إذن استـدعى داريوس الغالاتيين calltiens الذين يأكلون آباءهم بالفعل، وفي حضور الإغريق سأل الغالاتيين عن الثـمن الـذي يرتضونـه لـكي يحـرقوا جثـث آبائـهم حـين يتـوفـون فكـان أن تعـالـت صرخاتـهم ونـاشدوه ألا يذكر مثل هذه الشنـاعة...

الإهداء

أهدي ثمرة عملي هذا إلى:

. روح نيتشه القلقة، ونفس الماغوط ـ العصفور الأحدب ـ المعذبة...

. إلى كل من تقتات الحقيقة من روحه وجسده..

. إلى من أحنى الدهر ظهره وتحمل عذابات السنين وكتم أنينه ومضى في صمت الرهبان إلى ملكوت الأبدية...

. إلى التي ظلت تقارع بمنخلها طواحين الزمن الغادرة...

. إلى التي هناك وفقط...

. إلى كل الذين واسوني في أحلك اللحظات...

. إلى الإكسير الذي أخرج روحي من دهاليز اليأس إلى أجواز الأمل والانعتاق...ابنتي أريج الفردوس...

شكر وتقدير

أتوجه بشكري إلى كل من مد لي يد العون لإتمام هذا العمل ولو بكلمة وشد من أزري، شكري الجزيل موصول إلى أستاذي لخضر مذبوح الذي صبر علي وشجعني على خوض غمار هذا الموضوع الرحيب، وكما أشكر أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم قراءة بحثي لإمدادي النصائح المفيدة والقيمة في مساري العلمي الأكاديمي، كما أتقدم بالشكر الموفور إلى الطاقم التربوي والإداري لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية لجامعة منتوري قسنطينة التي أتاحت لي كل سبل المعرفة الممكنة طيلة مشواري الدراسي ومن أجل التحصيل العلمي..

مقدمة:

كانت الفلسفة عبارة عن مذاهب فلسفية وأنساقا ضخمة متصارعة فيما بينها ماركسية، تجريبية، وضعية، مادية، روحانية...وكل مذهب يدعي الحقيقة لنفسه بشكل دوغماطيقي مغلق. لكن بمجيء باحثين وفلاسفة جددا تغير الوضع، وتغيرت النظرة إلى العالم وإلى الفكر، ومنه تغيرت النظرة إلى حقيقة الفلسفة ودورها في الحياة كليا منذ أفلاطون إلى ماركس، لقد تحول الهم الفلسفي من الوعي إلى الخطاب، كيف ذلك؟

لقد كان ذلك مع أحد أعلام المدرسة التحليلية الأنجلوسكسونية من جهة ومع أحد أعلام المدرسة القارية من جهة أخرى، الأول هو المنطقي الرياضي النمساوي لودفيغ فدجنشتين الذي دعا الفلسفة لأن تكف عن الاهتمام بالمضامين الفلسفية النظرية، بل عليها أن تهتم باللغة التي تعالج بها قضاياها ، أي أن تتخلى عن بناء الصروح الفكرية الضخمة والبناءات الفلسفية المغلقة، وأن تقوم فقط بتحليل القضايا اللغوية وبذلك تحليل بنية الفكر. لقد كان لهذه الدعوة أبلغ الأثر، بل المحول الكبير لمسار طويل للتقاليد الفلسفية الأوربية. والشخص الثاني الذي نقصده هو العالم اللغوي السويسري فرديناند دوسوسير الذي اعتبر مفصلا أساسيا في مسار الفكر الأوربي الحديث. فقد شكلت محاضراته، التي ألقيت بين أعوام 1906–1911 من قبل تلاميذه، نقطة حاسمة في تاريخ الفلسفة المعاصرة ، فدوسوسير يولي اللغة عناية كبرى بوصفها تتضمن كل أشكال التعبير البشري أي كل مايعبر به الإنسان عما يجول في داخله من أفكار ومعارف وخبرات ،وان الفكر إذا نظر إليه قبل اللغة فإنه يعد كتلة لا شكل لها بل سديما غائما. من هنا أصبحت الفلسفة لا قيمة لها من دون البعد اللغوي، وبذلك حرف دوسوسير الدرس الفلسفي برمته من قمة الصروح النظرية التي دأبت على تشييده إلى واقع اللغة .أي من درس عام مفهومي إلى درس شكلي ثانوي يجعل جل اهتمامه اللغة التي كانت مهمشة من المتن الفلسفي لقرون طويلة. وبالتالي لم تعد الفلسفة فلسفة بالمعنى المفهومي القديم، بل أضحت خطابا لغويا، أو فلسفة للخطاب ، همها الوحيد تحليل مختلف الخطابات: الخطاب الأدبي، السياسي، العلمي، الإجتماعي، الإعلامي، الإشهاري، الفلسفي...واستكناه معاني ودلالات تلك الخطابات. إذن أصبح تصور العالم مرتبطا ارتباطا وثيقا بالتصور اللغوي له، وبذلك احتل مبحث التواصل Philosophie de la communication قصب السبق في البحث الفلسفي، وتغلغل داخل النسيج الفلسفي في أوربا وأمريكا القرن

العشرين بما انه مبحث عابر للحدود التقليدية بين الميادين البحثية والفلسفات أيضا، والتي فصلت الفلسفة في إنجلترا وأمريكا (الأنجلوساكسونية) عن الفلسفة القارية في أوربا (فرنسا وألمانيا)، كما تدعى عند بعض الباحثين والمؤرخين، وما زاد هذا المبحث أهمية هو علاقته الوطيدة بهموم إنسان اليوم، خاصة مع تزايد أسباب الفرقة والنزاع وحروب عالمية أصبحت في حكم الماضي، وحروب جديدة ذات أبعاد لم تكن معهودة من قبل يغذيها التعصب والتزمت الديني، ممثلا في الجماعات الدينية المتطرفة، وصعود مد اليمين المتطرف الذي يستمد أفكاره ووجوده من أصول دينية ضاربة في عمق التاريخ. وهذا ما أدى إلى أحداث مريعة مع بداية القرن الواحد والعشرين الذي كانت الإنسانية تأمل فيه الخير والسعادة والأمن، وإذ به يبدأ بحروب وأحداث رهيبة دوى لها العالم (أحداث 11 سبتمبر، حرب العراق وأفغانستان، وحرب إسرائيل على لبنان وعلى غزة) كل هذا الضجيج والزخم الجهنمي ونحن لم نتعدى بعد العقد الأول من الألفية الثالثة، وهذا الوجه المتجهم الكالح يقابله وجه يأمل فيه الناس الكثير، وجه تميزه آخر ابتكارات العصر واختراعاته، وفي كل المجالات وبخاصة في مجال المعلوماتية والاتصالات الأمر الذي جعل نبوءات شارل ماكلوهان في سبعينات القرن الماضي* تتحقق. لكنها المفارقة، عالم بحجم قرية لكن لا وجود لتواصل حقيقي بين أفراده، وهذا ما يطرح أكثر من تساؤل. فمن هنا يمتح مبحث التواصل مشروعيته، فهو ينفتح على آفاق كثيرة سياسية ولغوية واقتصادية وثقافية...سياسية تتعلق بصراع النظرية السياسية الليبرالية التي ينادى على أنها النموذج العالمي الأوحد رغم الأفكار والنظريات الخاصة التي توسم بالرجعية والديكتاتورية؛ ولغوية بما أن التواصل متعالق بأبعاد أطاريح فلسفة اللغة، والتداولية والوضعية والأنطولوجيا والهرمينوطيقا...وأن التواصل يتموضع داخل مجتمع وينفذ بأدوات مجتمعية معينة ويهدف قبل كل شيء إلى إيصال رسالة معينة لمن يهمه الأمر عبر التراتبية الألسنية المعروفة:

الرسالة

المرسل ــــــــــــــ المرسل إليه

لقد تمظهرت فلسفة التواصل – المعاصرة – في لحظتين هامتين هما:

*. شارل ماكلوهان في كتابه مجرة غوتنبرغ الذي يتنبأ فيه بأن يصبح العالم قرية صغيرة بفعل ثورة الاتصالات وكذلك كان.

1. لحظة التداولية : La Pragmatique: التي تجعل من البنية اللغوية أرضية صلبة لنظرتها للوجود وللإنسان باعتباره ظاهرة لغوية نشطة تفعل في الخارج، وهذا الفعل تواصلي في جوهره، وعبر هذه القاعدة المستندة للظاهرة اللغوية كضامن لكل معرفة وحقيقة، وجهت أبحاثها في كل الظواهر الأخرى، وهذا ما يبدو في أعمال رواد هذه النظرية ابتداء بـــشارلز ساندرس، بيرس Ch.S Pearce مرورا بزميله شارلز موريس Ch.Morris وصولا إلى ديتر بوهلير D. Bühler في ألمانيا ، وانتهاء بجون أوستن J. Austin وتلميذه سيرل J. R. Searl ، ومن بعدهما بول غريس p.Grice.

كما أن مجهودات التداولية فتحت المجال إلى ما يعرف بالمخرج الألسني كحاضنة جديدة بدراسة أوجه العلاقة بين المتكلم واللغة بحيث لا نكتفي بدراسة الجمل من حيث بعدها الصوتي والتركيبي، بل نتعدى ذلك إلى البعد التواصلي، وهذا ما سيبرزه بحثنا من خلال نظرية الفعل التواصلي عند يورغن هابرماس.

2. لحظة النظرية النقدية: وتمثل مدرسة فرانكفورت الرافد الأساسي والمعين الخصب بمبحث فلسفة التواصل في القرن 20، بل يمكن القول أن هذا المبحث نما وترعرع في جنبات هذه المدرسة مع هربرت ماركوز H. Marcuse وشب واشتد عوده مع هابرماس وكارل أوتو آبل K.O. Appel وألبرخت فيلمر A. Wellmer وحنة آرندت H. Arendt (مع الإشارة إلى أن هذه الأخيرة لا تصنف ضمن الخط الضيق للمدرسة).

لقد بشرت مدرسة فرانكفورت عبر فلاسفتها المتشائمين الراديكاليين بطبعهم (هوركهايمر، أدورنو،...) بأن عالمنا الراهن ليس أرض السر الكبير، وليس جنة الإنسان المفقودة أو أرض الأحلام الموعودة، بل إنه عالم مريض عصابي سمته التشيؤ والاستلاب وعنوانه الاستبداد والتطرف والإرهاب بكل أشكاله.

إنها نظرة تقول بإفلاس العقل والحداثة ونهاية مشروع الأنوار الكبير الذي نادى به وضحى من أجله عظماء الإنسانية ومفكرو نور البشرية.

إن هذه المدرسة لن تكتف بنقد المؤسسات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية القائمة بل همها النفاذ إلى البنية الفكرية التي انبت عليها العوارض المادية، وإلى الشروط القبلية لإنتاج خطاب الحداثة والتقدم وأنوار العصرنة...ومن ثم ربط اللغة بالمصالح التي تحن لها.

وقد ميز هابرماس في كتابه "المعرفة والمصلحة" "Connaissance et Intérêts" ثلاثة أشكال من المصالح القائمة على المعرفة هي:

– المصلحة التقنية المتمحورة حول تطبيقات العلم التجريبي، والمصلحة العلمية المنهمكة بالتواصل بين الأفراد والجماعات فيما بينها،

– والمصلحة التحررية، هدفها التحرر من كل ما يعيق انعتاق الذات وتحررها.

إن مسعى هابرماس الدؤوب يتمحور حول بلوغ عقلنة جديدة يدعوها العقلانية التواصلية Rationalité Communicationnelle في مقابل العقلنة الأداتية Rationalité Instrumentale التي يرفضها للأسباب التي ذكرنا (تشاؤم، اغتراب، أداتية، وسيلية، تقييدية، علموية..) عقلنة تواصلية تضع على رأس أولوياتها إعادة ربط صلة الفرد بالآخر الشريك دون ضغوط أو إكراه بغية تشكيل لحمة النسيج الاجتماعي وفق أنموذج أخلاقيات المناقشة، وباستلهام من المنابع الأولى للعقلانية الأنوارية الأصيلة، كما تصورها المشروع الحداثوي في الغرب وإذ ذلك سيتم الانتقال من مرتبة العقلنة إلى العقلانية، وهذا أمر بالغ الدلالة فهابرماس يجد نفسه بمشروعه هذا والمدافع عن ميراث الأنوار في مواجهة مباشرة مع الرافضين لهذا المشروع الذي حكم عليه بالإفلاس والنهاية وأوجبوا تجاوزه إلى عصر المابعديات : ما بعد الحداثة، ما بعد الكولونيالية، ما بعد الصناعة... إنه عصر النهايات: نهاية الحداثة، نهاية التقدم، نهاية الصناعة،...هؤلاء الناقضون لميراث ديكارت وهيغل وكانط من أمثال جاك دريدا وميشال فوكو وجان.فرنسوا ليوتار، وريتشارد رورتي ،وجان بودريار...من المتشككين والنيونتشويين...

وهذا الصراع الذي نجد أدواره في كتابه "القول الفلسفي للحداثة Le Discours Philosophique de la Modernité"، وهذا المسعى الحضاري لهابرماس هو ما جعله يتبنى الكثير من المقاربات في علم اللغة وعلم النفس وعلم الاجتماع والمنظومات السياسية والفكرية.

إن هابرماس ينطلق من خلفيات فلسفية متعددة ويمتح فكره من مشارب متباينة تباين الفلسفة التحليلية الأنجلوسكسونية والفلسفة المثالية القارية ، يجمع بين متناقضات فكرية بشكل مثير وبين ميادين بحثية متمايزة.

يعد هابرماس الممثل الرئيسي للجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت النقدية والتي أخذت على عاتقها نقد عقل التنوير وتجلى هذا النقد بصورة واضحة في جدل التنوير لعميدي الجيل الأول ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو، الذين عبرا فيه عن الانتكاسة التي أصابت التنوير والحداثة الأوربية عندما وظفت العقل كأداة لخدمة المنظومة الإنتاجية الصناعية في المجتمعات الرأسمالية، وماترتب عنه من اغتراب واستلاب وقهر، وتحول التنوير من فردوس بوهيمي إلى جحيم عقل أداتي قاس فقد الإنسان الأوربي إزاءه كل مقومات إنسانيته .لقد شارك هابرماس أعضاء الجيل الأول للمدرسة النقدية همهم ونقدهم للعقل الأداتي، لكنه ابتعد عنهم فيما بعد من أجل بناء نظرية نقدية متناسقة منهجيا بعدما تبين له قصور الجدل السلبي الذي يتبين سوى منهج الهدم. وسرعان ما تحول هابرماس من مناصر إلى ناقد للنظرية النقدية نفسها وجيلها الأول، وبذلك تبنى نظرية جديدة تتمثل في النظرية التواصلية، جامعا بين الهرمنيوطيقا وفلسفة اللغة.

ينطلق هابرماس من سد ثغرات النظرية النقدية، منصبا نفسه كمدافع عن العقل والعقلانية وميراث الأنوار الأمر الذي أكسبه عداوات المشككين في الحداثة الأوربية ومشروعية العقل المهيمن ، لكنه ظل يرفع في كل مرة شعار: "الحداثة مشروع لم يكتمل بعد".

كما دفعت تحليلات مارتن هيدغر الأنطولوجية التي ركزت على وجود الإنسان في العالم ووجوده مع الآخرين ..ولم تنطلق من الوعي الفردي والجماعي، ومحاولة الكشف عن قدرة هذا الوعي على تحد نمط الوجود.. فتأسست لديه البذرة الأولى لتحرر جماعي من منظور سوسيولوجي، وهو ماتفتقر إليه أنطولوجيا هيدجر، ولذلك كان هدف هابرماس تحرير الوعي الاجتماعي من خلال نظرية تقوم عل أساس التواصل الإنساني. كما كان علم الاجتماع أحد أهم مكونات المشروع التداولي الهابرماسي، لارتباطه بمشكلة العقلانية والمشكلات الناجمة عن التحديث وأهمية النظرية الاجتماعية في تحولات القيم الموجهة لعمل مؤسسات المجتمع. كما أن تأسيس نظرية للمجتمع تطلب منه إعادة بناء تاريخي للنظريات الاجتماعية الكلاسيكية لدى كل من ماكس فيبر، ماركس، دوركايم ، تالكوت بارسونز .. والتفاته بوجه خاص لنظرية الفعل عند بارسونز لأجل مجاوزة كل الطروحات النسقية الاجتماعية، ولهذا نجده يجمع بين النزعة الوظيفية لدى بارسونز وبين العقلانية عنده فيبر

مستندا على التحليل الماركسي من أجل تأسيس نظرية للفعل التواصلي تستند إلى أسس للمشروعية ومزاعم للصلاحية، أي لأجل قيام إجماع حقيقي لا يخضع لمختلف إكراهات الحوار وهيمنة السلطة والمال، لذا نجده ينتقد وبشدة الطروحات الإجتماعية الكلاسيكية وفكرة النسق لدى دوركايم ولوهمان.. متوجها صوب رحاب الفعل الإجتماعي الحر، ويتجاوز فكرة العمل عند ماركس إلى التفاعل الإجتماعي عبر الوسيط اللغوي الذي يوفره التراث الهرمينوطيقي واللساني الحديث متكئا على حصيلة الأبحاث اللغوية والتفاعلية الرمزية وأخلاق الخطاب لدى رايت ميلز وهربرت ميد..

كما أعاد هابرماس التفكير بماكس فيبر آخذا عليه تقسيمه المخل لأوجه النشاط العقلاني إلى ثلاثة مجالات : العلم والأخلاق والقيم ،ومانحا إيانا بديلا تواصليا يجمع بين هذه المتفرقات، فالسلوك العقلاني حسبه هو ذلك النموذج الذي يجمع بين وجوه العقلانية الثلاث: علم، أخلاق، فن. لأجل قيام إجماع حقيقي لا استراتيجي طفيلي.

كانت اللغة رافدا قويا ومعينا لاينضب للنظرية التداولية الهابرماسية الشاملة (الصورية) إذ اهتم هابرماس أيما اهتمام بأعمال اللغويين وفلاسفة اللغة التحليليين، وبمدرسة أكسفورد لفلسفة اللغة العادية، خاصة وعلى رأسهم جون أوستن وجون سيرل في نظرية أفعال الكلام، والتي تستند بدورها على أعمال فدجنشتين المتأخر وكتابه بحوث فلسفية philosophic investigations وفي فكرته عن الألعاب اللغوية. فهابرماس يأخذ على عاتقه إعادة بناء العالم رمزيا مقرونة بإنتاجه المادي، بناء مؤسسا على التفاهم البينذاتي، الذي يقوم على مبدأ المحاججة وهنا يكمن الميل التحرري للفلسفة، وهنا تعود لها الحيوية النقدية القائمة على مزاعم الصلاحية، فالفلسفة لدى هابرماس تهتم دائما بالشروط الصورية لعقلنة الفعل المعرف والتفاهم والفاعلية بعيدا عن كل عنف وسيطرة، اللهم إلا قوة الكلام بالمعنى الغرايسي (نسبة إلى بول غرايس p.grice) .

إن الإشكالية الكبرى التي عالجها هابرماس والتي تلخص مشروعه الفلسفي وتشكل محور بحثنا هي إمكانية قيام تواصل حقيقي بعيدا عن كل إكراه وتزييف وسوء فهم وإستراتيجية أو طفيلية باعتبار تواشج المعرفة مع الايدولوجيا، وتواطؤ العقل مع السلطة. فكيف يمكن لقيام حوار حقيقي في ظل طبيعة اللغة الزئبقية، وهل اللغة مجال للاتفاق حقا، أم أنها ميدان للغموض والضبابية وبالتالي لسوء الفهم و للتنازع كما يرى شكاك العصر من

التفكيكيين أمثال ليوتار وديريدا وبودريار وميشال دو سارتو..؟ وما مدى إمكانية قيام أخلاق تواصلية في ظل النزاعات المحتدمة بفعل الخلفيات: الإثنية والدينية والاقتصادية والسياسية...؟ وهل من الممكن قيام حوار حقيقي ونقاش حر بين الأفراد ينأى عن كل إكراه أو تزمت أو هيمنة..؟وإذا كان ذلك ممكنا فما ملامح هذا الحوار أو الفعل التواصلي؟

لمناقشة كل هذه التساؤلات ارتأينا تقسيم بحثنا إلى ثلاثة فصول، وذلك على النحو التالي :

الفصل الأول:تعرضنا فيه إلى شرح المنعطفات الفلسفية الكبرى في القرن العشرين ، اولها المنعطف اللغوي الذي كان فاتحة لعصر جديد للعلوم الإنسانية عموما و للفلسفة خصوصا، وكيف انفتحت الأبواب أمام سيادة المقاربة اللغوية لقضايا الوجود، ثاني المنعطفات يتمثل في المنعطف التداولي الذي يعتبر فرعا من علم أشمل هو السيميائية والذي ينظر إلى اللغة باعتبارها استعمالا لا تمثيلا للواقع أو تعبيرا عن النفس او الفكر. ثم تطرقنا إلى المقاربة التداولية بشكل تفصيلي فحددنا مفاهيمها وشرحنا ظروف نشأتها، نظرية أفعال الكلام وتتبعنا مسار تطورها عند أهم أقطابها ، وعددنا أنماطها حسب اختلاف أصحابها.

الفصل الثاني: في هذا الفصل المحوري دخلنا غمار نظرية التداولية الصورية (الشاملة) لدى هابرماس، فحللنا دور الفلسفة عنده والتي لم تعد فلسفة بالمعنى الكلاسيكي ، بل أضحت فاعلية متعلقة بالفضاء العمومي ، فتطرقنا إلى قضية العمل والتفاعل ، وتجاوز هابرماس الطرح الماركسي حول فكرة العمل. وشرحنا خطوط النظرية التواصلية وإمكانية قيام تواصل حقيقي في ظل التنازع وسوء الفهم ؛ الذي يوفره الفعل الإستراتيجي وأقمنا حوارا بين هابرماس وخصمه اللدود ليوتار الذي يجعل اللغة مثارا للعب والغموض والتنازع.

وفي الفصل الثالث تطرقنا إلى دور الفلسفة ومفهومها لدى هابرماس وعلاقتها بالفضاء العمومي، الذي هو محور قيام أخلاق تواصلية تتأسس بدورها على نقاش حر تداولي بعيد عن كل مايشوبه من إكراهات وهيمنة تحول دون قيام مجتمع تواصلي .ثم تساءلنا عن مشروعية قيام هذا الإجماع الذي ينشده هابرماس، وعددنا آراء خصوم فكرة الحوار الهابرماسية من الشكاك المعاصرين كليوتار ودريدا وبودريار...

وتوصلنا في النهاية إلى خاتمة وضعنا فيها حوصلة للنتائج التي توصلنا إليها في كل فصل.

أما بالنسبة للمنهج المتبع فكان المنهج التحليلي الذي توخينا منه الاقتراب من فكر الفيلسوف وتتبع أصول أفكاره وشرح معالم مشروعه التداولي.

الفصل الأول: المقاربة التداولية في الفكر اللغوي المعاصر

1. مفهوم التداوليـــــــــة

2. اللغة من النسق إلى الاستعمـــــال

3. التداولية أصول ومنطلقـــــات

أ. الفلسفة التحليليـــــــة

ب. نظرية أفعال الكـــــلام

الفصل الأول : المقاربة التداولية في الفكر اللغوي المعاصر

1. مفهوم التداولية :

ميز الفيلسوف الأمريكي **تشارلز موريس** (1901-1979)* Charele Morris في مقال كتبه في موسوعة علمية بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة و هي :

أ. علم التركيب (النحو) الذي يقتصر على دراسة العلاقات القائمة بين العلامات، أي العلامات فيما بينها و الكلمات في الجمل أو الجمل في مقاطعها بحثا عن إعطاء قواعد التعبيرات المكونة جيدا، وقواعد تحويل عبارات إلى تعبيرات أخرى، ومن ثم يعد احترام هذه القواعد شرطا للأجزاء المتوالدة.

ب. علم الدلالةsemantique : الذي يدور على الدلالة التي تحدد لعلاقة تعيين المعنى الحقيقي القائمة بين العلامات و ما تدل عليه، أي تتناول علاقة العلامات و الكلمات والجمل و الأشياء بمجالاته. إنها دراسة مرتبطة بالمعنى والمرجع و الحقيقة. أي علاقة الكلمة بالشيء.

ج. وأخيرا التداولية Pragmatique التي تعنى، حسب موريس، بالعلاقات القائمة بين العلامات ومستخدميها[1]. أي دراسة العلامات بمستعمليها والجمل بمتكلميها . إنها تتناول مفاهيم كانت غائبة تماما عن الدرس اللغوي واللساني الذي إهتم بقضايا شكلية وبنائية في اللغة كالنظام و النسق والبنية.

وهنا تكمن الثورة التي قادتها التداولية ، أي في تجاوزها للبعد الداخلي للنحو والدلالة والألسنية إلى البعد الإستعمالي للغة.

---

*. تشارلز موريس (1901 –1979) Charles Morris فيلسوف أمريكي تشابكت في مذهبه عناصر البرجماتية والوضعية الجديدة Neo . postivisme ومن أهم مؤلفاته :

أسس نظرية العلامات 1938،أسس نظريات في العقل 1932، الإشارات واللغة والسلوك 1946، المعنى والمغزى دراسة في علاقة العلامات والقيم 1964.

[1].آن روبول وجاك موشلار : التدوالية اليوم – علم جديد في التواصل، ترجمة : سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، الطبعة1 ، ص29

يجب أن نشير إلى العلاقة بين مصطلحي التداولية والبراجماتية والتي كانت مثارا للالتباس بين كثير من الباحثين والقراء. فالحديث عن البراجماطيقا في اللسانيات (التداولية*) يستوجب تمييزها عن مصطلح آخر استعمله البعض للدلالة على البراغماتية نفسها بمعنى التداولية، وهو الذرائعية، إذ تشير الكتابات المتخصصة في هذا الموضوع إلى أن الـــPragmatique هي توجه معرفي يعنى بخصائص استعمال اللغة والدوافع النفسية للمتكلمين وردود أفعال المستقبلين والنماذج الاجتماعية للخطاب وموضوعه، وذلك بمراعاة الخصائص التركيبية والدلالية[2] ثم تحولت فيما بعد مع **جون. ل. أوستن**(1911-1960) G.L.Austin إلى دراسة أفعال اللغة، ثم امتدت واتسعت لتشمل نماذج الاستعمال والتلفظ وشروط الصحة والتحليل الحواري، في حين أن الذرائعية Pragmatisme هي نظرية تهتم بالفائدة العملية لفكرة ما من حيث هي معيار لصدقها، وهذا يعني أن هناك بونا شاسعا بين الإصلاحيين، أي بين البراجماطيقا أو التداولية الفرع السيميائي، وبين البرجماتية المذهب الفلسفي، وإن كان المصطلح الأول؛ أي التداولية؛ يمتح أرضيته المفهومية من المذهب البراجماتي بصفة عامة .وبشكل أوضح نعتبر الـــ pragmatique مصطلح هو التداولية، ومرادف الـــ pragmatisme هو الذرائعية.

و يعرف كل من فرنسوا ريكاناتي وآن ماري ديلر François Recanati et Anne.Marie Diller التداولية بـــ" المبحث الذي يدرس استخدام اللغة داخل الخطابات والسمات المميزة التي تؤسس وجهته الخطابية في صلب اللغة "[3]

*. **يعود الفضل إلى الفيلسوف المغربي طه ع الرحمن في وضعه لهذا المصطلح سنة 1970 ،كمقابل للمصطلح الأجنبي البراجماتية دالا به على البراكسيس (Praxis) ولهذا المصطلح مقابلات عربية أخرى ، أقل شهرة في نظرنا أمام شهرة التداولية كالتخاطبية و المقاماتية و الوظائفية والنمذجة.. لما يتضمنه مصطلح " تداول" من دلالة على التفاعل والواقعية والممارسة و التعالق ، و كلها معاني يسعى هذا العلم (التداولية) لاستكشافها في نظام اللغة و استعمالها ، أما المعنى الحرفي المعجمي للتداولية فهو الانتقال من حال إلى أخرى ، يقال دال يدول دولا وأدال الشيء جعله متداولا ، وتداولت الأيدي الشيء أخذته مرة تلو المرة .انظر: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، مادة"دول"، دار صادر، بيروت–لبنان، مجلد11، ط1، د ت، ص233**

[2] **. Dictionnaire de linguistique p 38**

[3]. **ف.جاك " La Pragmatique ضمن الموسوعة العالمية Encyclopédia universalis المدونة 15-1985**

أي أنها الدراسة التي تتناول اللغة من جهة استعمالها لا جهة معناها أو بنيتها الداخلية، لذا تقول فرنسواز ارمنيغو : " إنها – تعني التداولية –دراسة استعمال اللغة في الخطاب شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية "[4].

فالتداولية في معنى من معانيها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالسيميائية، وهي من جهة أخرى منعرج حاسم في الدرس اللغوي الحديث والفلسفة عموما، فهي قفزة جديدة تتناول البعد الإجرائي الخارجي للغة، هذا البعد المنسي في الدراسات اللغوية، باعتبارها تركز على علاقة اللغة بمستخدميها أي تتجاوز البعد التصوري المفهومي والتمثيلي الذي اهتمت به المناهج القديمة والتي ظلت تعتبر اللغة تمثيلا و تصويرا للواقع الخارجي أو دواخل النفس البشرية.

إنها–التداولية– تتطرق إلى اللغة كظاهرة خطابية و تواصلية و اجتماعية في آن واحد، فهي بهذا أحد المنعرجات المعرفية التي طبعت المرحلة المعاصرة ، لذا يصنفها جون مارك فيري* ضمن منعطفات القرن العشرين إلى جانب المنعطف الفينومينولوجي Le Tournant pheno-menologique والمنعرج الألسني T.Linguistique.[5]

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو ماالفرق بين المقاربة التداولية والمقاربات السابقة عليها والتي تشكل فروعا معها ضمن المبحث السيميائي (علم العلامة)الشامل والمتمثلة في النحو والدلالة وبينها وبين والمناهج الأخرى كالألسنية والبنيوية والشكلانية ؟

2. اللغة من النسق إلى الاستعمال:

إذا كان علم النحو يهتم بدراسة الخصائص الشكلية والبناءات اللغوية، وكان علم الدلالة يختص بدراسة العلاقات القائمة بين الماهيات اللغوية وبين العالم الخارجي، فإن التداولية لا تني تغوص في متاهات المعاني لأن المعنى يضطرنا في بعض الصيغ اللغوية إلى العودة لدراسة الطريقة التي قام من خلالها المتكلم ببناء الجملة، فحينما يتلفظ المتحدث

---

4. فرنسواز أرمنيغو : المقاربة التداولية ترجمة: سعيد علووش، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت – باريس العدد 41 / أيلول / تشرين الأول، 1986، ص62.

***. جون مارك فيري J Marc Ferry: فيلسوف فرنسي لا يزال في قمة عطائه الفلسفي اهتم بشكل رئيس بالفلسفة الألمانية تأليفا و ترجمة، وخاصة أعمال هابرماس، حيث ترجم عمله الضخم "نظرية الفعل التواصلي " إلى اللغة الفرنسية بجزئيه، وذلك. بمساعدة أحد كبار مترجمي هابرماس في فرنسا "جان ماري لادميرال وراينر روشليتز R.Rochltiz وكريستيان بوشيندوم C.Boucihndom. من أهم كتب فيري فلسفة التواصل نقله إلى العربية الأستاذ عمر مهيبل .**

5. جون مارك فيري ، فلسفة التواصل، ترجمة: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم بيروت–لبنان و منشورات الاختلاف الجزائر و المركز الثقافي العربي الرباط– المغرب، الطبعة الاولى، 2006 ، ص 13 .

بجملة، فإنه يحيلنا شئنا أم أبينا إلى واقع أو إلى حالة الأشياء أو الموضوعات التي يتحدث عنها، وقد لا يكون هذا الواقع ممثلا بالضرورة في الجملة وبالتالي يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار سياق اللفظ والعناصر المركبة للجملة لكي يفهم ما يقوله المتحدث[6].

ميز أوستن بين الدلالة التداولية والنحو بوصف التداولية حذفا مباشرا ومتطورا، في حين أن النحو دلالة حذف ثابت وشكلي.إذن فالنحو يعنى بتوضيح الشروط المحددة والقواعد التي تضمن صياغة الأقوال الجيدة، وتهتم الدلالة بالشروط التي تجعل الأقوال مفهومة وقابلة للتفسير، بينما التداولية هي العلم الذي يعنى بالشروط اللازمة لأن تكون الأقوال مقبولة وناجمة وملائمة بالموقف التواصلي الذي يتحدث فيه المتكلم.

ومن جهة أخرى إذا كانت الألسنية مع دوسوسير و البنيوية مع رولان بارت و ليفي ستراوس وميشال فوكو، والشكلانية الروسية مع باختين و تودورف وشكلوفسكي وتنيانوف و جاكوبسون و بروب تنظر إلى اللغة كبناء و كعلاقات داخلية لا علاقة لها بالمتكلم وتتناولها في بعدها التزامني لاالتعاقبي التاريخي، فإن التداولية تعيد الاعتبار للمتكلم وللكلام، هذا الذي أقصي من قبل دوسوسير من ساحة البحث لصالح النظام، أو النسق اللاواعي، والذي رفض الكلام الفردي المتحقق في الخارج بحجة أنه متغير من شخص إلى آخر. تضع التداولية المبادئ السوسيرية السابقة موضوع تساؤل وجدال، و تنفي ببساطة " أسبقية الاستعمال الوصفي و التمثيلي للغة وأسبقية النظام و البنية على الاستعمال، وأولوية اللغة على الكلام والقدرة على الإنجاز "[7]. وبعبارة أوجز: إذا كانت الدراسات الألسنية والبنيوية تهتم ببنية اللغة الداخلية وبالنسق والعلاقات البينية للكلام وتقصي كل بعد خارجي فإن التداولية تعيد الاعتبار لسياق الكلام، أي بعد اللغة الخارجي أي أولوية الإنجاز على المعنى المفهومي والتحقق على البناء.

أما عن الفرق بين الدلالة والتداولية ، فالمعنى في الدلالة يعتمد على التفسير الحرفي لمنطوق الجملة والمعنى بشكل مطلق، ونقصد به المعنى معتمدا على العناصر المؤثرة في

---

[6]. **هربرت بركلي : مقدمة إلى علم الدلالة الألسني، ترجمة قاسم مقداد، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق،ط1، 1990 ، ص ص 107 ، 108**

[7]. **ف. ارمنيغو : المقاربة التداولية، مرجع سابق ، ص 62، وهذا ما سنوضحه بالتفصيل في العنصر اللاحق.**

إنتاجه في الأبعاد اللسانية وغير اللسانية، وضمنه يدخل المعنى التداولي أو المعنى السياقي (المقامي).

فالدلالة جزء تتناول العلامة اللغوية باعتبارها ذات بعد شكلي (نحوي) معجمي، بينما التداولية تتعامل مع البلاغة، أي مع العلامة اللغوية باعتبارها إحالة إلى سياق وجودي أي رمز إشاري (يشير إلى سياق معنى) فالإشارة في كلمات (أنا هنا) لا تتحقق إلا من خلال السياق، وذلك بمعرفة الملابسات السياقية عن المتحدث والمخاطب والخطاب[8].

يضع الباحث جورج. ليش G. leech عدة نقاط أساسية ينطلق منها لتمييز الدلالة من التداولية (الرؤية التداولية والرؤية النحوية والدلالية) تتمثل فيما يلي[9]:

1. التحديد الدلالي للجملة البلاغية يختلف عن التفسير التداولي
2. الدلالة سلطة قاعدة (نحوية) بينما التداولية فهي تحكم مبادئ بلاغية
3. قواعد النحو عرفية، أما مبادئ التداولية فهي ليست عرفية بل تتعلق بالأهداف المحادثاتية.
4. التداولية العامة تربط المعنى Sens أو المعنى النحوي بالملفوظ وبقوته التداولية (قوة فعل الكلام Illocutionary).
5. التطابقات النحوية تعرف بدقة بواسطة تخطيطات قواعدية، أم تطابقات التداولية فتعرف بدقة بالمشكلات وحلها.
6. التغييرات والشروح النحوية شكلية، أما الشروح والتفسيرات التداولية فهي ابتداء وظيفة.
7. النحو فكري خالص، أما التداولية فهي نصية تواصلية بين الأفراد.
8. إن النحو يمكن وصفه فصول منفصلة ومحددة، أما التداولية فتوصف بأنها تقديرات مستمرة وغير محددة.

---

[8]. **فرنسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط- بيروت، 1986، ص 84.**

[9] . **G. LEECH: The principal of Arguments, Longman USA 1983 p543**

3. التداولية أصول ومنطلقات:

أماعن نشأة هذه المقاربة ، التي تعتبر المرحلة الثالثة لتاريخ الدراسات اللغوية وأبحاث المعنى والفرع الثالث من فروع السيميائية، وعن أصولها النظرية، فإن الفلسفة التحليلية تعتبر المنهل الأول الذي انبثقت منه أولى البوادر التداولية، والمتمثلة في الأفعال الكلامية (les actes de la langue)، وهذه الفلسفة تفرعت عنها فلسفات أخرى ساهمت كلها في بلورة هذه المقاربة بصورة عامة.

أ. الفلسفة التحليلية: لقد كان الفيلسوف الألماني " **غوتلوب فريجة** "(1848-1925) G.Frige رائد الاتجاه التحليلي من خلال التحليلات التي أجراها على العبارات اللغوية ، وعلى القضايا ، وكان لتمييزه الحاسم بين مقولتين لغويتين تتباينان مفهوميا ووظيفيا وهما : إسم العلم و الاسم المحمول، وهما عماد القضية الحملية، وذلك في كتابه: " أسس علم الحساب " . فاسم العلم في نظرية فريجه هوالذي يشير إلى فرد معين، أماالمحمول فإنه يقوم بوظيفة التصور. وقد اعتبر هذا التمييز إنقلابا جديدا، وذلك بما يتجلى في رؤيته الدلالية المميزة بين اسم العلم و الإسم المحمول، وبين المعنى و المرجع[10]. كما ربط بين مفهومين تداوليين هامين هما الإحالة و الاقتضاء، ويمكن إجمال مفهوم الفلسفة التحليلية في جملة من المبادئ :

- ضرورة التخلي عن أسلوب البحث الفلسفي وخاصة جانبه الميتافيزيقي.
- تغيير بؤرة الإهتمام الفلسفي من نظرية المعرفة إلى التحليل اللغوي أو ما يسمى بالمنعطف اللغوي.
- تجديد وتعميق بعض المباحث اللغوية، ولا سيما " مبحث الدلالة "، والظواهر اللغوية المتفرعة عنها.[11]

ولقد تفرعت الفلسفة التحليلية إلى ثلاثة اتجاهات :

-الوضعية المنطقية بزعامة رودولف كارناب.

---

[10]. الجيلالي دلاش:مدخل السيميائيات التداولية،ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1994، ص 11

11. ماهر ع القادر محمد علي : فلسفة التحليل المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت ، ط1 ،1985، ص230

-الظاهراتية اللغوية بزعامة ادوند هوسرل.

-فلسفة اللغة العادية بزعامة لودفيغ فدجنشتين

لقد ميز فلاسفة الوضعية المنطقية بين وظيفتين رئيسيتين للغة:

إحداهما هي الوظيفة المعرفية (cognitive) مفادها استخدام اللغة كأداة رمزية تشير إلى الواقع (وقائع العالم الخارجي)، ولا يزيد عملها على تصوير الوقائع، وعبارات اللغة هنا هي العبارات التجريبية.

ثانيهما هي الوظيفة الانفعالية (émotive) ومحتواها أن الإنسان يستعمل اللغة لإخراج الانفعالات التي تضطرب بها نفسه كعمل الشاعر، والعبارات هنا هي تلك التي تتناول مسائل الأخلاق والميتافيزيقا.

واعتبروا العبارات الأولى ذات معنى ووصفوها بالمنطقية، في حين اعتبروا الثانية لا معنى لها وخاوية من أي مدلول؛ بحجة أننا لا نجد لها مطابقا في الواقع، وبالتالي فمهمة اللغة هي وصف أو تصوير الواقع الخارجي أو تقرير واقعة من وقائعه، ويمكن بذلك الحكم عليها بالصدق أو الكذب بناء على قابلية هذه العبارة للتحقق، ولم يكن هناك مناص من الحكم على أنماط أخرى من العبارات لأنها زائفة statement–pseudo [12]. وهذا ما اعتبره جون أوستن j.austin المغالطة الوصفية Descriptive fallacy ، إذ ما الذي نفعله بكل أنواع العبارات الأخرى التي لا تقوم بوصف العالم الخارجي ولا علاقة لها البتة بقيام الصدق والكذب " ماذا نحن فاعلون بالجمل الطلبية(الأمر والنهي)والجمل الإستفهامية .. ؟!

هذا التساؤل نجده عند فدجنشتين – المتأخر – إذ يقرر أنه من الخطأ القول بأن الوظيفة الوحيدة المشروعة للغة هي الوصف أو التسمية، لذا تجاوز ذلك إلى نظرية الألعاب – ألعاب اللغة – ليبرر تنوع استعمال اللغة، هذه النظرية الأخيرة، أي الألعاب اللغوية، التي تعتبر الرحم الشرعية التي نتجت منها المقاربة التداولية، والتداوليات اللغوية بصفة عامة، وبالضبط نقده القوي الذي وجهه للوضعية المنطقية في كتابه: "بحوث فلسفية philosophic invistigations"، وتجاوزه لأفكاره الأولى عن اللغة الإصطناعية التي بثها في"الرسالة المنطقية الفلسفية "logico –tractatus philosophicus إلى التأسيس لنظرية الألعاب اللغوية التي تنطلق من فلسفة للغة العادية، وهذا ما سيصبح دستور مدرسة أكسفورد في مقابل غريمتها

---

[12]. **صلاح الدين ع الحق : التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد ،دار التنوير،ط1، 1993، ص135**

مدرسة كامبردج، من هنا تجاوز فدجنشتين النظرة المفهومية للغة التي ترى في اللغة مجرد تصوير للواقع أو مايسمى بمقولة المرآة إلى القول بفكرة "اللغة–الاستعمال"[13].

كما أسهم الفيلسوف الأمريكي تشارلز **سندرس بيرس** ch.s.pears (1814–1939) بقسط وافر في بلورة النظرية التداولية، وذلك من خلال منظومته السيميائية وفعالية الذوات في رؤيتهم للعالم، والإدراك الحاصل عن هذه العلاقة عبر رؤية كونية شاملة، وتم ذلك من خلال ثلاث مراحل مرت بها نظريته السيميوطيقية:

– مرحلة الإستلهام الكانطية.

–مرحلة منطقية صرفية.

– ثم المرحلة السيميوطيقية : في هذه المرحلة يقترح بيرس نظريته الجديدة حول العلامة، أي أنه انتقل من الطرح المثالي إلى التوجه البراجماتي المبني على أرضية لغوية تواصلية تختزل الدليل إلى ثلاث محاور رئيسية نستخلصها من بيرس نفسه :«الدليل أو الوحدة الممثلةrepresentem هو شيء موجود هاهنا من أجل شخص ما لغرض ما، وذلك على نحو من الأنحاء، والدليل هذا يتوجه إلى شخص ما. أي أنه يحدث في فكر هذا الشخص دليلا مساويا؟ أو قد يحدث فيه دليلا أكثر تطورا . هذا الدليل اسميه مؤول الدليل الأول Interprétant (المؤولة) و الدليل موجود هنا من أجل شيء ما هو موضوعه وهو موجود هنا من أجل هذا الموضوع لا من حيث كل علاقاته، بل من حيث إحالته على نوع من الفكرة التي أسميها أحيانا قاعدة الوحدة الممثلة Base de représentant محددا في هذا صيغ الوجود[14].

1–الأولانية : هي نمط الوجود الذي يقوم على واقع كون موضوع /ذات، هي موضوعيا كماهي، دون اعتبار أي شيء آخر إنها وجود الشيء أو الذات في ذاته.

2–الثانيانية : وهي تحدد الوجودالواقعي الفعلي المتجسد (المتعلق بمقولة الزمان المكانوالوجود المتجسد يتعلق بالموجودات، هذه الصيغة متعلقة بما قبلها.

3–الثالثانية : وهي نمط الوجود المتعلق بناءا على كون الحدث أو الشيء المتوقع لوجودمحكوما بقانون يضبطه، والقول بالقانون يعني إمكانية التعميم، وهذه الصيغ تتناسب

---

13. صلاح الدين ع الحق :مرجع سابق.ص 136

14. حامد خليل : المنطق البراجماتي عند تشارلز ساندرس بيرس دار الينابيع للطباعة والنشر و التوزيع دمشق،ط1، 1994، ص8

والأبعاد الثلاثة: الممثل-2- ، الموضوع -1- المؤول،[15] على الترتيب.

ب. **نظرية أفعال الكلام:**

ويذهب الفيلسوف الأمريكي جون أوستن بالتداولية ضمن تراث مدرسة أكسفورد أشواطا طويلة، فبعد أن استمر فلاسفة كامبردج في تحليلاتهم للمشكلات الفلسفية من زاوية لغوية إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، وبعدها انتقل مركز التحليل إلى أكسفورد متخذا إطارا جديدا لينصب على تحليل اللغة الجارية بين الناس- العادية- مع كل من:جلبرت رايل (J.Rail)، جون أوستن (J.Austin) و بيتر ستراوسن (strawson) وبتأثير من فدجنشتين ورده الشهير على فلاسفة الوضعية المنطقية راسل وكارناب.. في محاضراته التي ألقاها في أكسفورد مابين 1952و1954 ومحاضرات هارفارد 1955 والتي اختار لها جامعها إرمسون (Ermesson) سنة 1960 عنوانا أصبح شهيرا فيما بعد، هو :كيف نصنع (ننجز) الأشياء بالكلمات : how to do things with words . وتأتي أهمية مشروعه في رفضه أن تكون اللفظة مجرد وصف للوقائع الخارجية ومعيار صدقها هو مدى تحققها أي مطابقتها للواقع الماثل، وعد ذلك المبدأ مغالطة وصفية -كما أسلفنا- خاصة ونحن نرى كما هائلا من العبارات التي لا تصف العالم و لا تقرر حقيقة إنما تنجز فعلا وتوقع عملا[16]. لذلك ميز أوستن بين نوعين من الأفعال[17] :

1. أفعال إخبارية تقديرية وصفية (constatvie) يمكن أن نحكم عليها بالصدق أو الكذب.
2. أفعال أدائية إنجازية (Performative) يمكن أن تكون موفقة أو غير موفقة مثل :التسمية الوصية، الاعتذار، الرهان، النصح، الوعد... وفي سبيل تعديل رؤيته راح يحلل و يصف بنية الفعل الكلامي فتبين له تكونه من ثلاثة أفعال بسيطة هي :

أ. الفعل اللفظي (acte locutoire)

ب. الفعل الإنجازي (acte illocutoire)

---

15. حامد خليل : المرجع نفسه، ص9

[16]. **محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ص43 وأيضا: للمؤلف نفسه: نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية، مجلة الدراسات اللغوية، مجلد1،عدد01، الرياض ،1999 ص161**

[17]. **صلاح إسماعيل ع الحق : مرجع سابق ص143**

ج. الفعل التأثيري (acte perlocutoire)

يميز أوستن بين الأقوال التعبيرية Locutionary act * والأقوال التمريرية Illuctionary act، وبقية أنواع الأقوال التي ترجمناها هنا بالتقريرية والتأثيرية والتحاورية.

لقد ميز فريجه، من قبل، بين المغزى والأصالة référence et sense حيث المغزى هو الدلالة المستخلصة من المضمون الفعلي الذي ينقله الخطاب والإحالة هي المدلول الخارجي الذي يحيل عليه أي ميز بين "ما" الخطاب و"عما" الخطاب كما يقول بول ريكور.

فـــ"ما" الخطاب هو مغزاه، أما "عما" الخطاب فهو مرجعه وإحالته référence وقد قدم تمييزه هذا في مقالته الشهيرة Uber Sinnnurdu Bedutung التي ترجمت إلى الإنجليزية إلى sense (المغزى) والإحالة référence[18].

كما ميز هوسرل بين التعقل الصوري للقصد neetic وتعقل المضمون الخالق للقصد nomematic[19].

وأوضح ستراوسن (strawson) في مقالته الشهيرة عن راسل "عن اليقين" فإنه جملة بعينها، أي مغزى بعينه، قد يشير إلى الخارج، وقد لا يشير اعتمادا على الأقوال أو إلى سياق فعل الخطاب[20].

ويؤكد فريجه أننا لا نرضى بالمغزى وحده بل نفترض قبلا وجود الإحالة. هذا ما مهد لأوستن القيام بتصنيفه للأفعال الكلامية والقول بها رأسا، فهو يميز بين الأفعال التعبيرية والأفعال التمريرية، والفعل التمريري هو أصغر وحدة متكلمة في الاتصال اللغوي الإنساني، وحينما نتكلم أو نكتب لبعضنا فإننا نؤدي أفعالا تمريرية، وهي الغاية الخاصة من تحليلنا عن الآثار والنتائج التي يمكن أن تسفر عنها الأفعال التمريرية في المستمعين[21].

---

*. المصطلحات: **Perlocutionary, Illocutionray, Locationray** من أصعب المصطلحات على الترجمة إلى العربية، وليس بين المترجمين العرب اتفاق عليها، والترجمات المقدمة هي مجرد اجتهادات، كما مثلت ترجمة مصطلح **Illocutoire/Illocutionaire** مشكلا بسبب السابقة حيث اختلفت الترجمات: 1. اللاقول، 2. المقصود بالقول، 3. المتضمن في القول، 4. يميز عبد القادر بين فعل الكلام **Locutionaire** وقوة الكلام **Illocutionnaire** ولازم فعل الكلام **Perlocutionnaire**...إلخ

18. بول ريكور: نظرية التأويل، مرجع سابق ص 49.

19. . سعيد الغانمي: مقدمة كتاب بول ريكور: نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، بيروت-لبنان، 2006، ط2، ص 14.

20. بول ريكور: المرجع نفسه، ص 49-50.

21. جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الدار العربية للعلوم ناشرون -لبنان، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 2006، ص 202.

والفعل التمريري أو الغرضي (الإيعازي) يتضمن فعل القول "نية" أو إيعاز أو غرضا لفعل ما، وهذا الارتباط المعنى بالقصد يشير إلى أن كل قول يمكن فيه فعل ما قد يكون إخبارا، تحذيرا، توقعا...إلخ.

وعن طريقة هذا الغرض نبتين قوة الفعل الغرضي وبالتالي إيعاز المتكلم تحذير، توقع، إنذار، إخبار...) إنه الفعل الداخل في القول.

الفعل الثاني هو الفعل التعبيري (Locutionary act) إنه فعل القول ففعل "كتب" يدل على قول شيء يفعله الشخص الذي يكتب، وقول شيء ما هو فعل الشيء، أي فعل مكتمل التركيب، صحيح الدلالة وسيلة الصوت، والصرف، والجديد في هذا كله هو أن أوستين يخرج من دائرة مدارس النحو القديمة وفقه اللغة.

وأخيرا الفعل التأثيري (Perlocutionary act) وهو ما نصل إلى تحقيقه من خلال فعل الشيء وهو ما يترك صدى على أرض التحقق[22].

وبهذا أقر أوستين بأن كل جملة بمجرد التلفظ بها على نحو جاد إلا وأنجز عمل وقول وعمل متضمن في القول والقيام بعمل تأثير بالقول.

وطور تلميذ أوستن، بعد وفاته سنة 1960، الأمريكي جون سيرل(1932)J.R. Searl والذي يحتل موقع الصدارة بين أتباع ومريدي أوستن، نظرية أستاذه وشمل عمله بعدين من أبعادها الرئيسية هي: المقاصد والمواضعات، فالأعمال اللغوية والجمل التي أنجزت وسيلة تواضعية للتعبير عن مقاصد وتحقيقها، وهذا المظهر كان حاضرا لدى أوستن لكن تلميذه يطوره بشكل لم يكن له وجود لمدى أوستن[23].

يهتم سيرل بالأعمال المتضمنة في القول (أي الغرضية Illocutionary)، ويشكك في وجود أفعال تأثيرية Perlocutionnaire ويتمثل إسهامه الرئيسي في التمييز داخل الجملة بين ما يسميه "القوة المتضمنة في القول (Force)، وما يتعلق بمضمون الفعل أو ما يسميه واسم المحتوى القضوي. فإذا كنا إزاء جملة مثل :"أعدك بأن أحضر غدا" فإن "أعدك" هي واسم القوة المتضمنة في القول .

---

[22]. حسن مصدق: يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، النظرية النقدية التواصلية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب بيروت–لبنان، ط1، 2005 ، ص ص 130،131.

[23]. جان سيرفوني: الملفوظية، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1998، ص 105.

ومن جهة أخرى ومن ميدان علم النفس اللغوي نجدالألماني كارل بوهلر k.buhlerينتقد التقسيم الثنائي السوسيري المعروف للدليل، وبالمقابل يقترح بوهلر في نموذجه التبليغي ثلاث وظائف أساسية للدليل فـ" أيا كانت الكيفية التي نعالج بها الأشياء، فإن سبيل البحث اللغوي التاريخي عن الفعل اللغوي Acte du langage، بوصفه مصدر كل ما هو تاريخي في اللغة، في حاجة إلى نظرية النشاط اللغوي "[24].

أي أن اللغة مع كل هذا لم تبق بينية مفهومية ثابتة بل هي نشاط وفعالية تتجاوز تلك العلائقية الداخلية التي أرساها دوسوسير و البنيويون و الشكلانيون. إننا يجب أن ننظر إلى اللغة مع التداولية، لا على أنها نسق داخلي منسجم ومغلق، بل ننظر إليها باعتبارها وسيلة التواصل بين متكلم وسامع، أي الانتقال من منطق الماهية إلى منطق العلاقة، من منطق النسق إلى منطق التحاور والتفاعل، أي تناول البعد التفاعلي للغة الذي يختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها وإجراءات التواصل بشكل عام. لقد آن لنا أن ننتقل من اعتبار اللغة نصا مغلقا إلى النظر للغة باعتبارها سياقا خاصا وظروفا معينة ليس بالمتكلم وحده بل بالسامع أيضا، هذا الرقم الذي همش من ميدان البحث اللغوي طويلا.

فالتداولية إذن استبدلت بثنائيات اللسانيات السوسيرية والبحث اللغوي اللساني والبنيوي قضايا جديدة أهمها :

– مفهوم الفعل: فاللغة لا تقوم فقط بتمثيل العالم ، بل إنجاز الأفعال ، فالكلام هو ان نفعل كما يؤكد جون أوستن ، وهو فعل في الآخرين ، تدشين معنى ، نحو التفاعل بين طرفي اللغة (المتكلم والسامع)

– مفهوم السياق: يقصد به الوضعية الملموسة التي توضع وتنطق من خلالها مقاصد تخص المكان والزمان وهوية المتكلمين ... الخ

[24]. أوزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر:القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، طبعة منقحة ، ترجمة : منذر عياشي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء-المغرب، بيروت- لبنان، ط 2، 2007، ص ص690،691

-مفهوم الإنجاز : إنجاز الفعل في السياق إما بمحايثة لقدرات المتكلمين أي معرفتهم وإلمامهم بالقواعد، وإما يتوجب إدماج التمرس اللساني بمفهوم أكثر تفهما كالقدرة التواصلية[25].

إن نظرية الأفعال الكلامية، على كل، تقلب تلك الثنائيات السوسيرية اللسانية وترمي لما يلي :

- أسبقية البعد الانتاجي على الوصف التمثيلي للغة
- أسبقية الاستعمال على النظام.
- أسبقية الكلام على اللغة.
- أسبقية الانجاز على القدرة.

إن البنيوية منهج تحليلي تم توظيفه عن طريق عدد كبير من السيميولوجيين وهي منهج مؤسس على النموذج اللغوي لسوسير، والبنيويون ينشدون وصف الهيئة الكلية لتنظيم العلاقات كلغات كما فعل كلود ليفي شتراوس مع الأساطير وصلات القرابة والطوطمية...وكذلك جاك لاكان مع العقل اللاواعي ورولان بارت وجريماس في النحو المتعلق بسردية القص.

اهتمت البنيوية بتحليل العناصر اللغوية التي تكون منها النص بغض النظر عن الملابسات الخارجية التي صاحبت تكونه - النص - أو الملابسات التي تتعلق بالمنشئ (الكاتب) أو المتلقي أو الظروف الخارجية التي أحاطت بالنص، أو ما إلى ذلك فيما يندرج تحت لفظ السياق.

فإذا ما اتبعنا إجراءات التحليل اللغوي بدأب - بطريقة آلية لكي نتجنب الانحياز - أمكن لنا الحصول على جرد كامل للأنساق الموجودة بأي نص من النصوص وتبدو الدعوة أولا: بأن علم اللغة يقدم لنا حسابا بالوصف الشامل غير المنحاز لنص من النصوص، ثانيا: بأن حساب الوصف اللغوي هذا يؤلف إجراءا كثيفا للأنساق الشعرية، من حيث أنه إذا ما تم إتباعه بشكل صحيح، فإنه يمنحنا بيانا بالأنساق الموجودة في النص بطريقة موضوعية"[26].

أي أن البنيوية تتنكر لكل القبليات والافتراضات العقلية والذاتية من أجل تحقيق الموضوعية العلمية في دراسة النصوص أو اللغة عموما، وفي العلوم الإنسانية بشكل أعم.

---

[25]. **المرجع نفسه، ص ص694،692**

[26]. **جوناثان كلر: الشعرية البنيوية، ترجمة السيد إمام، دار شرقيات، ط1، القاهرة، 2000، ص 81.**

وبسقوط هذه الافتراضات تسقط الفلسفة العقلية والماركسية على حد سواء، ويزداد سقوطها مع البنيوية حين تعلن موت الذات العارفة أو الأنا الماركسية (الكوجيتو) جوهر "الكوجيتو" الديكارتي لأنها تنأى بنفسها عن المعرفة إلى منهج معرفة، أو كما يقول دي سوسير Méthodologique حيث عرف اللغة بأنها نظام من العلامات – مغلق – فأسقط بهذا المعنى من النسق اللغوي، وأبقى عليها نظاما أي شكلا لا غير، وهذه هي أصول فكرة الشكلية* المقول بها في البنيوية ومن هنا سوف لا ينظر النقد البنيوي إلى موضوعات الأدب من جهة جمالها ولا إنسانيتها، وإنما من جهة العلاقات أو النظام (البنية) الداخلي الذي يحكم هذه الموضوعات"[27].

من هذا المنطلق اهتم البنيويون بالتحليل التزامني Synchronique للغة، أي دراسة الظاهرة اللغوية كما لو أنها وجدت في لحظة واحدة من الزمن، بينما يركز التحليل التعاقبي Diachronique على البعد الزمني التاريخي المتطور عبر الزمن.

وتأتي التداولية كرد فعل على هذه الصرامة الزائدة في البنيوية التي تتمثل في الشكلية الخالصة أي فصل الظاهرة اللغوية عن كل أبعادها الخارجية وانغلاقها التام على النص دون اعتبار أي علائق تاريخية أو نفسية أو ظروف برانية تؤثر في النص ويؤثر فيها أيضا. لتقيم – التداولية – المصالحة مع البعد المهمش والمنفي من قبل البنيوية والسيميائية واللسانية السوسيرية.

ويعد تشارلز موريس (1901-1979) أحد أكبر المسهمين في النظرية التداولية إذ بسط كثيرا من أفكار سلفه " بيرس " كما طور بعض مفاهيمه النظرية، ومن ذلك رؤيته للتصنيف الوارد في الثلاثية السالفة الذكر بالمعاني التالية (أيقون ، مؤشر ، رمز) ويتجلى دوره الكبير في تأسيس نظرية الدليل (1938) وتمييزه بين المجالات الثلاث : (النحو ، الدلالة ، التداولية) كما سلف بيانه . ومن هذا المنطلق فان الأمر يقتضي التركيزعلى أشياء مدلول عليها والمؤولات على اعتبار أنها " سيرورات سلوك فالجسم من حيث هو جسم يفعل في المحيط وينفعل به، علما بأن وظيفة المحيط و أهميته عاملان حاسمان في إرضاء حاجاته

---

*. نذكر أن هذا هو مبدأ الشكلانيين الروس الذين اهتموا بالأدب كشكل أي بما يسمى الأدبية (أدبية الأدب) مع باختين و تودورف و تنيانوف و شكلوفسكي...أي التركيز على الجوانب الفنية والجمالية للنص، في مقابل الواقعية الاشتراكية التي تحيل إلى المعنى الخارجي للنص أي إرجاع النص إلى أبعاده الاجتماعية والاقتصادية التي شكلته، فالأدب وكل الحياة العقلية هي انعكاس للبعد الاقتصادي الاجتماعي .

[27]. علي مرزوق: النظرية الأدبية والحداثة، دار المعارف، دمنهور، ط1، 2001، ص 78.

ومن ثم فإن هناك تفاعلا بين هذين العاملين "فهويختلف في هذا الطابع السلوكي الذي يميز نظريته وسيرورة الدليل او ما يعرف بالسيميوزيس (semiosis).

ويمكن تلخيص أعمال كل من أوستن وسيرل في النقطتين التاليتين :

1. رفض الثنائية : الصدق والكذب.

2. الإقرار بأن كل قول هو في حقيقته فعل.

لكن يجب الإشارة أن التداولية ليست نوعا واحدا بل هي تداوليات متنوعة ومتباينة تباين إلى جهة النظر التي ينظر منها الفيلسوف أو اللغوي أو البعد الذي المركز عليه لبناء منظومته التداولية ، ويمكن إجمال فروع التداوليات في ما يلي :

-التداولية التلفظية لتشارلز موريس

-التداولية التخاطبية (الفعل اللغوي) أوستن و سيرل

- التداولية لغرايس

- التداولية المتعالية لكارل أوتو آبل

- التداولية الصورية ليورغن هابر ماس

وهذه الأخيرة هي مدار بحثنا في الفصل التالي.

الفصل الثاني : التداولية الصورية لدى هابرماس

1. نظرية الفعل التواصلي:

تعد نظرية هابرماس في اللغة والمعروفة بالفعل التواصلي بمثابة منطق جديد للعلوم الاجتماعية باستناده إلى منجزات فلسفة اللغة ذلك انه يرى أن اللغة تمكننا من إحداث قطيعة مع الأطروحات التقليدية في العلوم الاجتماعية المتعلقة بالوعي والفعل والممارسة[28] بالإضافة إلى دراسة هابر ماس للتاريخ و علم النفس و الاقتصاد السياسي و تاريخ الفن وفلسفته و الأدب الألماني و علم الاجتماع الذي هو ميدانه التخصصي ، و هو قد جاء الفلسفة من ميدان علم الاجتماع ، فقد أفاد إفادة هائلة من تطور علم اللغة ، و خاصة نظرية الفعل اللغوي التي تعتبر عماد المقاربة التداولية pragmatique ، و من هنا أضاف إلى النظرية النقدية، بل خطا بها خطوات واسعة، ووصل بها درجة لم يصلها الرعيل الأول لمدرسة فرانكفورت[29] أي أدورنو و هوركهايمر ، و ماركوز ، وإريك فروم... فرغم ثقلهم العلمي إلا أن هابرماس هو الفيلسوف الوحيد الذي فرض نفسه على المشهد الثقافي و السياسي في ألمانيا ،الأمر الذي جعل وزير الخارجية الألماني " يوشكا فيشر " ينعته ب " فيلسوف الجمهورية الألمانية الجديدة " و هذا ما جعل أيضا الكثيرين يعتبرونه الوريث الشرعي للمدرسة النقدية – فرانكفورت – و من هؤلاء إيان كريب[30].

فقد حاول الخروج من دائرة النظرية النقدية بطريقة نظريةاجتماعية أكثر اتساقا و تنظيما، ليضع بذلك نسقا تحليليا شبيها بعض الشيء بنسق تالكوت بارسونز النظري ، في خطوطه العريضة على الأقل ، فهابرماس يعد سليل تراث نقدي طويل ، بدءا من كانط و هيغل إلي ماركس ونيتشه وهيدغر ، و حتى الجيل الأول من مؤسسي مدرسة فرانكفورت أنفسهم، لكل هذا وغيره يعد تفكير الرجل تطورا و مراجعة جذرية للنظرية النقدية و ممثلا لجيلها الثاني، و كان هذا نتيجة التغيرات التاريخية و الاجتماعية و السياسية التي شهدتها أوربا عامة و ألمانيا بعد الحرب خاصة . هذا من جهة ومن جهة أخرى التحولات الفكرية و

---

[28]. الزواوي بغورة:الفلسفة واللغة ،دار الطليعة للطباعة والنشر ،بيروت ، ط1،2005،ص209

29. علاء طاهر: مدرسة فرانكفورت ، من هوركهايمر إلى هابرماس، منشورات مركز الانماء القومي ،بيروت، (د.ت) ، ص91.

30. إيان كريب: النظرية الاجتماعية ،من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد.حسين غلوم مراجعة محمد عصفور ، مجلة عالم المعرفة ،سلسلة كتب ثقافيةشهرية يصدرها المجلس الأعلى للثقافة و الفنون والآداب ، الكويت،العدد244 أبريل 1999 ، ص305.

العلمية المعاصرة ما جعل هابرماس يوسع آفاق النظرية النقدية إلى حد بعيد ، الأمر الذي جعل اسمه يطير في الآفاق و يضحي كنار على علم ، فهو أكثر الفلاسفة شهرة في العالم وأصالة ، وهذا لاسباب ستتبين من خلال تتبع أبعاد ونقاط مشروعه التواصلي.

و السؤال الذي يلح هنا هو ما معالم هذه النظرية ، أو هذا المشروع التداولي التواصلي وما أبعاده وأهدافه ومالجديد الذي طرحه هابرماس ؟

إن المتأمل لمسيرة يورغن هابرماس الفكرية يلفيها تنقسم إلى مرحلتين أساسيتين ، اتسمت المرحلة الأولى بالطابع التحليلي الإبستمولوجي وتمثلت في أعماله عن التقنية و العلم والإديولوجيا "و الرأي العام" وكان أهم عمل له في هذه المرحلة كتابه المعرفة والمصلحة (1965) وتبنى فيه منهجا نقديا متأثرا بفلسفة " كانط " و" ماركس ". حاول في هذا الكتاب أن يعيد بناء تسلسل جينالوجي للعلوم الطبيعية و الإنسانية الحديثة ،وذلك بالرجوع إلى الظروف الاجتماعية والتاريخية والمعرفية التي نشأت في ظلها ،وقد كشف هذا البحث الاستقصائي إلى رأيه عند تزايد التخصص في مجالات المعرفة التكوينية المختلفة بحيث بلغت مرحلة تعذر فيها الحوار النقدي بين هذه المجالات ونتج عن ذلك أن وقع التفكير لاسيما إلى الفلسفة و العلوم الإنسانية تحت تأثير أشكال مختلفة من التفكير الذاتي النسبي أو حتى غير العقلاني "[31]

أي أن هابرماس يعتقد أن العلوم شهدت أزمة خانقة حيث قامت بالفصل بين النظر والعمل، بعد أن انفصلت عن التفكير التأملي الشامل،إذ سقطت في مأزق الهوة بين النظر والممارسة.

أما المرحلة الثانية فقد اتسمت بقفزة نوعية تحرر فيها صاحبنا من فلسفة التأمل الذاتي التي كانت في مرحلة الشباب ، وبدأت هذه المرحلة الحاسمة بكتابه "منطق العلوم الاجتماعية " والذي بلور فيه نظريته التواصليةوالتي وسعها في كتابه " نظريةالفعل التواصلي "وهنا تحول هابرماس من الاهتمام بين الذوات والأشياء إلى الاهتمام بقضايا التواصل والتفاهم بين الذوات، ومن هدم فلسفات الوعي المتمركزة حول العقل إلى نظرية تقوم على الفعل ، والفعل التواصلي بالذات من خلال النموذج اللغوي .

---

[31]. عطيات أبو السعود : الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، بحوث فلسفية أخرى، منشأة المعارف، جلال حزي وشركاؤه ، ط1، تاريخ الإيداع 2002، ص92

يستبدل هابرماس بنموذج معرفة الأشياء نموذجا للوفاق بين ذوات قادرة على الكلام والعمل. و السبب الذي جعل هابرماس يتحول إلى المنعطف اللغوي (التداولي) هو إفلاس التيارات السابقة عليه وعجزها عن إنتاج الأسس المعيارية لنظرية نقدية للمجتمع ،وقد تبلور عمله في نظرية الفعل التواصلي.

تعتبر نظرية هابرماس في اللغة والمعرفة باسم الفعل التواصلي بمثابة منطق جديد للعلوم الاجتماعية، منطق يستند إلى منجزات فلسفة اللغة ، ذلك لأنه يرى أن اللغة هي الملجأ الذي يمكن له أن يحدث القطيعة مع الأطروحات التقليدية في العلوم الاجتماعية المتعلقة بالوعي والذات والفعل والممارسة . إن هابرماس يحاول أن يجتاز فلسفات الوعي العقلانية و التجريبية إلى فلسفة للتفاهم عن طريق اللغة ، وهذا لأن النموذجين العقلاني والتجريبي قد أفلسا في الوصول إلى نظرية واضحة و شاملة تخلو من هنات و نقائص. إنه وجد الملجأ في التواصل بين الذوات ،ولذلك يقول " ماأنهك هو نموذج فلسفة الوعي ، ولئن كان الامر كذلك ، فإنه لابد من ان تختفي أعراض الإنهاك فعلا بالانتقال إلى نموذج التفاهم ".[32]

ولهذا يرى أنه من الضرورة بمكان تحويل علم الاجتماع إلى فرع من فروع الاتصال ويجب أن يقوم على الفعل التواصلي، فلن يبقى علم الاجتماع كما كان يدرس الوقائع الاجتماعية ، بل يجب أن ينصب جل اهتمامه على العلاقات التواصلية بين الأفراد، أي العلاقات البينذاتية أي الأفراد باعتبارهم ينشئون علاقات تواصلية بينذاتية intersubjectif قوامها اللغة.

إن هابرماس يرى أن البعد المنسي أو اللامفكر فيه – بتعبير فوكو – هو اللغة وبالضبط البعد التواصلي ، والذي يجب أن يعاد له الاعتبار .إن كلا من الفلسفة المثالية و الفلسفة التجريبية لم يقدما –حسب هابرماس– إلا نماذج من التواصل المشوه.وديالكتيك العلاقة الأخلاقية التي طورها هيغل تحت عنوان من أجل الاعتراف يعيد تكوين القمع والعنف ، إنه تواصل مشوه من خلال العنف عنفا عمليا ديالكيتكيا. ليس التفاعل اللا قسري

---

[32]. يورغن هابرماس : القول الفلسفي للحداثة ، ترجمة فاطمة الجيوشي ، منشورات وزارة الثقافة – دمشق –سوريا ،د.ط، 1995، ص454.

بين الذوات وإنما تاريخ قمعه[33]. ويؤكد أن إنتاج هذا النوع من التواصل هو تشويه العلاقة الحوارية المماثل في عملية الرموز المنشطرة. أي أن هيغل ومعه التيار المثالي بكامله يطرح شكلا ثنائيا من التواصل أي الذي يقيم شرحا بين الذات و العالم باعتباره يعيد عالم الأشياء إلى الذات ولا يمنح الآخر أي قيمة أو دور في التفاهم و الحوار.

فهيغل "يشرح علاقة تعرّف الذات في الآخر ، التي يرتبط فيها مفهوم الأنا بوصفه هوية العالم و المفرد وليس مباشرة عن علاقات التفاعل بين الذات"[34].

وحتى بالنسبة لفكرة الحب التي يوردها هيغل في فكر الشاب تأخذ طابعا فرديا لا تفاعليا : «حين يكون المنفصل موجودا ليس كمنفصل –كواحد–وما هو حين يشعر بما هو حي»[35]. فهيغل يشرح في المحاضرة الثانية من محاضرات يينا ،لا ترى الآخر بما هو آخر بل بما هو ذات منعكسة في الآخر. فالأنا عند هيغل ، كما يؤكد هابرماس هي كل شيء و العالم ليس شيئا بما أنه ذائب في الأنا ، ففي مقدمة المنطق الذاتي يذكر هيغل بذلك المفهوم عن الأنا : أنا [...] هي

أولا هذه الوحدة الخالصة العائدة إلى ذاتها ثانيا : هي مباشرة فردية عائدة إلى ذاتها وجود متعين مطلق ، يواجه الآخر ويقصيه ... وجود في ذاته ولذاته[36] أي الأنا يوصفها ذات خالصة ، و بوصفها " أنا أفكر " أي كوجيتو.

والآخر في إطار التفاعلات الذاتية للروح في حيث لا تتواصل الأنا مع ذاتها بوصفه آخرها ، أنا مع أنا آخر يوصفها آخر[37] فالأنا هي النظر والمنظور على حد سواء كما لم يتجاوز دوركايم فكرة الفردية وإن دعا للجمعية ، فقد طور مقولته ضمن وجهة النظر هذه، «إن حدث الفردية ليس سوى اندماج اجتماعي وهذا الاندماج يجب النظر إليه على انه فردنه وذاك في عمله الصميم الأول: تقسيم العمل الاجتماعي (1843) كما وضع أسس نظرية الفعل الاجتماعي»[38].

---

[33]. يورغن هابرماس : العلم والتقنية كأيديولوجيا ، ترجمة: حسن صقر، منشورات الجمل كولونيا ألمانيا ط1،2003 ، ص14

[34]. يورغن هابرماس : المصدر نفسه، ص 10

35. يورغن هابرماس : المصدر نفسه، ص 13

36. هابرماس : العلم والتقنية كإيديولوجيا، مصدر سابق ص 9 ، 10

37. هابرماس : المصدر نفسه ص13

38. هابرماس : المصدر نفسه ص 13

أما عن التيار التجريبي فهو يسعى إلى نزع اللمسة التطهرية للعقل في طرحه الأداتي الغائي المغرض ، فمن رحم هذا التيار نشأ الاستلاب والاغتراب و التشيؤ الذي أفقد الإنسان روحه ومقوماته الأخلاقية .فلقد سادت النزعة العلمية المجتمعات الأوربية وأصبحت فيصلا في إضفاء الشرعية على آليات التحكم التكنوقراطي ، مما استبعد القيم الإنسانية، لذا يهدف هابرماس إلى خلع العلموية عن العلم وان يخضعه لنوع خاص من الموجهات والمعايير الأخلاقية والاجتماعية.

وإذا كانت اللغة عند هوبز في اللوفياثان :"يتجلى الاستعمال العام للكلام في نقل خطابنا النفسي إلى خطاب لغوي أو تجسيد لأفكارنا في كلمات متوالية"[39].

وعند لوك :"الكلمات في دلالتها الأولى والحالية لا تمثل إلا أفكارا موجودة في نفس المعبر عنها" وهذا ما دعي بنظرية الانعكاس أو المرآة، فالفعل الإنساني يغدو تعبيرا عن أفكار، والذي يزيد فيه فعل التواصل عن كونه انعكاسا نفسيا فقط[40].

وعلى خلاف هذا يشير هابرماس في مقاله الشهير What is universal pragmatic الذي نشره في كتاب صديقه كارل أوتو.آبل (K.O. Appel): Sprach pragmatic and philosophy 1976 إلى أن فحص اللغة والكلام لن يقتصر فقط على دراسة الجمل من الناحية الصوتية والتركيبية أو الدلالية بل يجب أن تنتقل إلى مستوى رابع جديد يعني بتداوله (pragmatique) الأفعال والخطاب بحيث لا تكتفي بالجمل صالح دراسة تداول الخطاب ككل أي الانتقال من دراسة الكفاية اللغوية compétence linguistique إلى الكفاية التواصلية compétence pragmatique فإذا كان تشوسكي اهتم بالفصل بين الكفاءة والأداء اللغوي فإن هابرماس طور مفهوم الكفاية اللغوية إلى مفهوم الكفاية التواصلية[41]. وإذا كان هدف شومسكي هو تحديد المعرفة اللغوية للمتكلم المثالي فإن هابرماس اهتم بالتواصل ومصطلح المتكلم المثالي لكن القادر على إنجاز لغوي سليم، أي بمعناه الإجرائي التواصلي، أي بين الذات المتكلمة والآخر السامع أي بوجود طرفين لا طرف واحد كما يقول شومسكي.

---

[39]. حسن مصدق: المرجع السابق، ص 80.
[40]. حسن مصدق: المرجع نفسه، ص 81.
[41]. حسن مصدق: مرجع نفسه،ص 127.

يدين هابرماس في نظريته عن الفعل التواصلي إلى فلسفة اللغة كما صرح هو نفسه بذلك في إحدى مقابلاته :"أنا مدين لكل من النزعات التداولية والتحليلية للنظرية اللغوية...إن غاية الفهم المتبادل مغروسة في الاتصال اللغوي".

كما استمد بعض عناصرها من نظرية أفعال الكلام بوجه خاص، ومن علم اللغة[42]. الاجتماعي "إن مفهوم الفعل التواصلي يفترض اللغة بوصفها الوسط الذي يمكن أن يتحقق منه نوع من التفاهم ومن خلاله يستطيع المشاركون في التعامل مزاعم الصدق التي يمكن الاتفاق عليها أو الاختلاف حولها"[43].

كما طور نظرية استنادا إلى مضامين أفكار التداولية الحوارية (المحادثة) لغرايس ومن أسباب ميل هابرماس نحو اللغة هو يغير شكل ذلك الرفض ينشر على نطاق واسع لما يسمى بالحجج التأسيسية في كل أشكالها ومظاهرها[44].

تلعب اللغة دورا أساسيا، إذن، في نظرية هابرماس باعتبارها – اللغة – الوسيط الأساسي بين الذوات، ودليله في ذلك هو أن قدرتنا على التواصل ذات بنية وقواعد أساسية لا توجد إلا في اللغة التي تتعلمها وتتحدث بها كل الذوات. فالتجربة التواصلية ليست هي القدرة على إنتاج جمل لها قواعد أو دلالات، كما أن اللغة ليس مجرد نسق من الرموز والإشارات ذات تركية نحوية معجمية وصوتية أو لها خصائص دلالية معينة، بل النظر إلى اللغة على أنها أفعال أو إجراءات أو أداءات بمعنى النظر إلى خصائصها التداولية. بمعنى آخر اللغة ليست البنية أو المعنى بل اللغة هي الاستعمال كما صرح فدجنشتين من قبل.

فاللغة تشكل عند هابرماس نسقا من القواعد تساعد على توليد تعبيرات بدرجة أن كل تعبير مصاغ بشكل صحيح يعتبر عنصرا من هذه اللغة، ومن ثم فالذوات القادرة على استعمال هذه التعبيرات تشارك في عمليات التواصل لأنها تستطيع التعبير وفهم الجمل والجواب عليها"[45].

واللغة لا تتشكل إلا من خلال التفاعل بين الذوات، فهي ليست معطاة، بل إجراء ونشاط بين ذوات عارفة، فمن خلال الحديث بين المشاركين في التفاعل الذي يربطهم بالعالم

[42]. عطيات أبو السعود : مرجع سابق ، 105
[43]. عطيات أبو السعود: المرجع نفسه ، ص 105
[44]. عطيات أبو السعود: المرجع نفسه، ص 106.
[45]. محمد نور الدين أفاية: مرجع سابق ، ص 198.

المعيش وبالذوات الأخرى وبالمقاصد والرغبات والمشاعر يقوم كيان اللغة. ومن هذا الجانب تتجلى علاقة نظرية أفعال الكلام بنظرية الفعل التواصلي.

والتواصل كما صوره هابرماس ينظر إلى النقد في بعدها البرجماتي فهو يعني اللغة وهي منغمسة في تيار الإنتاج والإبداع لكن ما هي حقيقة هذا الإنتاج ومضمونه.

يجيبنا هابرماس وصراحة واختصار إنه التفاهم أو الوفاق entente أو الإجماع Consensus وهو في هذه المسائل كما يقول على اتفاق تام مع فتجنشتن الذي يرى أن مفاهيمه عن اللغة مفاهيم أصيلة تعبر عن حقيقة الجهد الذي بذله في هذا المجال.

ويؤكد هابرماس على أن النشاط العقلي المعرفي الأدائي له أهمية شديدة من حيث القدرة على استخدام اللغة والرموز والعلاقات من أجل تحقيق التواصل المأمول بين البشر.

والهدف من التفاهم، كما يؤكد هابرماس، هو الوصول إلى نوع من الاتفاق بين الذوات يؤدي في الأخير إلى تقارب وجهات النظر وإلى تفاعل إيجابي بين المتحاورين "إن التفاهم هو العملية التي من خلالها يتحقق اتفاق معين على أساس المفترض لإدعاءات الصلاحية المعترف بها باتفاق مشترك"[46].

فالفهم والتواصل في الحياة البشرية تعترضه ثغرات وعراقيل دلالية متعددة فكثيرا ما نجد الخلاف وعدم الفهم في المحادثات والمناقشات اليومية وهذا يرجع إلى ألعاب اللغة، فإن إمكانية التخلص من حالة عدم الفهم أو عدم الاتفاق تفترض – كما يرى هابرماس – وهو أساس للمعنى يكون متفقا عليه بشكل عام "الإجماع"[47].

يكمن صلب مشروع هابرماس في الكشف عن الوسيلة التي بموجبها تقوم البنى الاجتماعية بتشويه عملية التواصل وتثير فيها الاضطراب والبلبلة، إذ أن سوء الفهم ممكن بين البشر ويمكن خداعهم وتضليلهم بشكل منتظم وهو عندما يتحدث عن التواصل بين الأفراد في المجتمع يؤكد على أن النشاط التواصلي لا يكون مجرد فعل تتوجه به ذات معزولة ولكن مناقشة وحوار يتم بين ذاتين فاعلين أو ذوات فاعلة مختلفة. فالنشاط التواصلي هو حوار ومناقشة تدور بين ذوات فاعلة مختلفة، حوار تحكمه عدة شروط تحددها الأستاذة عطيات أبو السعود في:

---

[46]. أبو النور حمدي أبو النور حسن:يورجين هابرماس ، الأخلاق والتواصل،المكتبة الفلسفية ، إشراف عبد الحليم عطية، دار التنوير ، ط2009 ، ص 153.

47. أبو النور حمدي أبو النور حسن: المرجع نفسه، ص 155

– يتم من خلال علاقة تفاعل بين فردين أو أكثر خلال سياق العالم المعيش فمن حق كل شخص له القدرة على الكلام أن يشارك النشاط التواصلي

– تتم عملية التواصل من خلال اللغة

– الهدف هو الوصول إلى اتفاق

– ديمقراطية الحوار

– وجود الظروف التي تضمن الإجماع الذي لن يتم إلا عن طريق قوة الأطروحة الأفضل (قوة الحجة والبراهين التي يقوم عليها التواصل)

– التحرر من أشكال الضغط والقهر الخارجي

– أن يكون لكل مشارط الفرصة في الدفاع عن رأيه دون سيطرة سلطة ما.

إن هابرماس يعلن إفلاس وقصور الطرح المتعالي المثالي و الطرح الاختباري الجزئي " لا ترى الذات في ذاتها ذاك الذي يجابه العالم بمجمله ويذهب إلى السيطرة عليه ،أولا ترى في ذاتها سوى واقع مادي حاضر في العالم والمخرج لدى هابرماس هو التفاعل بين الذوات في إطار تواصل بينذاتي بين الأشخاص بعيدا عن كل إكراه و قسر ، لا يوجد أي وساطة ممكنة بين الذات و الآخر غير وساطة بين ذاتية ينتجها اللسان ، وعندئذ تدخل الأنانية في علاقة بين شخصية تسمح بأن تنسب إلى ذاتها متبنية منظور الآخر ، بقدر ما تشارك في تفاعل[48].

يؤسس هابرماس لتفكرية perspective جديدة ، بعيدة عن تفكرية التعالي لفلسفات الوعي وتفكرية الاختبار الوضعية ، تفكيرية تصالح بين الأنا والآخر ، الآخر الذي أقصي من عملية المعرفة ومن دائرة الحقيقة وهمش طيلة قرون . فتاريخ الفلسفة منذ أفلاطون و ديمقريطس ظل محكوما من قبل اتجاهين متناقضتين:

الأول يستخلص بلا تحفظ في وقت واحد القوة المتعالية للفعل المجرد والعنصر المحرر اللامشروط الموجود في المعقول ، والثاني مادي يسعى إلى نزع القناع عن التطهرية الخيالية للعقل[49].

يريد هابرماس البحث عن حل عقلاني للتقنية التي أطبقت على العالم المعيش واستفردت به من جميع الجهات، فهو يقر بأننا نعيش عصر الرأسمالية المتقدة القائمة على التقنية والعقل الأداتي، بل إن شرعيتها مستمدة منها.

---

48. **هابرماس : القول الفلسفي للحداثة، مصدر سابق ، ص456**

49. **هابرماس : القول الفلسفي للحداثة ، المرجع نفسه ، ص 496**

ويعتبر ماركس في نظر هابرماس أكبر داعية للتقنية، ولكن تجدر الإشارة إلى أنه إذا كان ماركس قد ناصر التقنية كوسيلة لتحرير الإنسان من الأمراض الفتاكة والأوبئة وجبروت الطبيعة...، فإنه أشار في مواطن متعددة إلى الأخطار التي تحدق بالطبيعة من جراء الاستغلال التقني الأرعن لمواردها، يقول ماركس :"إن كل تقدم في فن الزراعة الرأسمالية ليس فقط تقدما في نهب الأرض، فكل تقدم في زيادة خصوبة الأرض لوقت محدود من الزمن هو تقدم في تخريب الموارد الدائمة لهذه الخصوبة"[50].

ومع ذلك فالتقنية أو بالأحرى التكنوقراطية (رديفها في المجال السياسي) أبعد من أن يحتكر مجمل النشاط الإنساني في المجتمع. ولكي يبين هابرماس حدود مفهوم التقنية من منظور ماركس، فإنه يقسم المنظومة الاجتماعية إلى مقولتين: العمل والتفاعل.

يعيب هابرماس على ماركس اهتمامه فقط بالعمل والإنتاج داخل دائرة النشاط الأداتي، متجاهلا جانبا لا يقل أهمية عن العمل ألا وهو التفاعل الإنساني كالنشاط التواصلي الذي له الدور الحاسم في لحم النسيج الاجتماعي أو ما يسمى علم الاجتماع بالجمعنة Sociabilité.

وبهذه المناسبة يدعو هابرماس إلى ضرورة القيام بمراجعة نقدية لمفاهيم ماركس للمادية التاريخية كما لا بد من إعادة صياغتها انطلاقا من اعتبارات جديدة. وهنا يقترح استبدال الزوج: قول الإنتاج وعلاقات الإنتاج بزوج آخر تجريدا هو العمل والتفاعل.

فإذا كان العمل في نظر هابرماس "نشاط عقلاني بالنظر إلى غاية وأقصد بذلك إما نشاطا أداتيا أو اختيارا عقلانيا أو تنسيقا بينهما"[51].

فإن التفاعل هو :"المصاغ بواسطة الرموز، إنه يخضع للمعايير المعمول بها...التي تكون مفهومة ومعترف بها من طرف شخصين فاعلين على الأقل"[52].

لا يحاول هابرماس هنا أن يلغي تلك المفاهيم المتعلقة بالنشاط الآلي المرتبطة بالعقلانية الأداتية، من مضمار العقل، بل يريد أن يقر، بالإضافة إلى ذلك الجانب من فعل العقل، بجانب آخر من الفعل يستغل سلبية العقل ويقوم هذا الفعل بمراقبة ونقد نتائج الفعل

---

50 . Marx.K, Œuvres, le Capital. Vol.I. Paris, la pléade Gaillmard 1965, P.998.

51 . Habermas : La pensée post-Métaphysique, essais philosophiques. Traduit par Rainer Rochlitz, Armond Colin. Paris 1993. P70.

52. أشرف حسن منصور: مرجع سابق، ص 456.

الأول الأداتي، وينظم العلاقات في مجال الأخلاق والسياسة، وهذا ما يقوم به العقل التواصلي.

فهابرماس يتجاوز مفهوم ماركس للبراكيس (Praxis) أو الممارسة إلى التفاعل بين الذوات كما يتجاوز نظرية الفعل لدى ماكس فيبر إلى نظرية الفعل التواصلي، وهذا ما لحظه في سؤاله الحساس في كتابه نظرية الفعل التواصلي (Théorie de l'agir communicationnel) في جزءه الثاني "لماذا تعمل العلوم الحديثة في خدمتها للتقدم التقني على تشجيع النمو الرأسمالي والأداة العقلانية، وليس على فهم الذات وفهم عالم المواطنين الذين يتواصلون فيما بينهم؟"[53].

فلم تعد المعرفة عند هابرماس ترتبط بطرق إنتاج هذه المعرفة بقدر ما ترتبط بالطريقة التي تعمل بها الذوات القادرة على الكلام وعلى الفعل على تطبيق هذه المعارف.

صحيح أن العمل وقوى الإنتاج لهما – في رأي هابرماس – دور حاسم لكنه يضيف إليهما بعد التفاعل من خلال الوسيط (Médium) اللغوي، و"يهتم ماركس بتجاهلهما في كتاباته المتأخرة وخاصة (رأس المال)"[54].

وفي كتابه "إعادة بناء المادية التاريخية" صفى هابرماس حساباته مع الماركسية التقليدية، وإن ظلت تحليلاته ذات طابع ماركسي من ناحية المنهج والنقد الجدلي المادي، بمعنى أن نقده لم يهدف إلى هدم المقولات الماركسية وإنما قصد تطويرها باكتشاف الطاقات الكامنة فيها، فالماركسية كما يؤكد بول بوران آسون "لا تدخل في فلسفة هابرماس وفلاسفة فرانكفورت كعقيدة خارجية فحسب، بل كمرجعية نظرية أساسية وأداة إرشاد نقدي"[55].

ويعتبر هابرماس أن تيارين تطورا داخل الماركسية الغربية، يتحدد الأول في احتكاكه بعطاءات ماكس فيبر، والثاني بعطاءات هوسرل ومارتن هابدغر.

فإذا كان :"لوكاتش الشاب والنظرية النقدية قد تصوروا التنبؤ بوصفه عقلنة وذلك للوصول إلى مفهوم نقدي للعقلنة وبتملك النظرية الهيغيلية من زاوية مادية وبدون استدعاء نموذج الإنتاج"[56].

---

[53]. محمد نور الدين أفاية: مرجع سابق ص 142.

[54]. عبد الغفار مكاوي: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 98.

[55]. بول لوران آسون: مدرسة فرانكفورت، ترجمة سعاد حرب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان ط1،1990، ص 77.

[56] . **Habermas: le discours philosophique op.cit p93**

أما التيار الثاني فيتمثل في القراءة التي قام بها كل من ماركوز الشاب، وسارتر فيما بعد، للكتابات الأولى لماركس على ضوء الفينومينولوجيا الهوسرلية، حيث سمحت لهما بتجديد نموذج الإنتاج وتطوير مفهوم الممارسة، القوى بمضمونه المعياري، وذلك كله بدون استدعاء مفهوم العقلنة"[57].

فكلا التيارين لم يوفق في فهم بنية المجتمع، أي أنهم لم يخرجوا من دائرة الإنتاج. فكان يجب وضع نظرية تجمع بين النشاط الإنتاجي والنشاط الاتصالي. فنظرية "النشاط التواصلي تقيم الفعل، علاقة داخلية بين الممارسة الإبداعية والعقلنة، وتدرس المضمرات العقلانية التي تفترضها الممارسة التواصلية اليومية وتسعف المضمون المعياري الملازم للنشاط الموجه نحو التفاهم ليتوصل إلى مفهوم العقلنة التواصلية"[58].

فعملية العقلنة عند هابرماس لا تعني ذيوع النشاط العقلاني بالقياس إلى غاية إنتاجية بل تعني النشاط العقلاني بالقياس إلى صدق الخطاب، فلا يكفي لتحديث المجتمع التركيز على الأبعاد المعرفية الأداتية إذ يجب إدخال أبعاد أخرى تتمثل في الأبعاد الأخلاقية والجمالية والتعبيرية.

معلوم أن عملية التحديث ولدت مواقف إنتقادية عديدة من قبل بعض الفلاسفة، فالنظرية النقدية مثلا كانت تعتبر التحديث بأنه "غائية بدون غاية للعقلانية الأداتية مع هوركهايمر، أو صيرورة لاعقلية للعقل وبنهاية الفرد بالنسبة لأدورنو أو بالتداخل العضوي بين التقنية والسيطرة باعتبار أن العقلانية تتضمن مشروعا لاستخدام الأشياء والناس في الوقت نفسه كما قال ماركوز، أما هايدغر فقد اعتبر بأن التقنية امتداد للميتافيزيقا الغربية وهي إرادة الإرادة" والتحكم الكلي في الموجود سقوطا مربعا لماهية الإنسان.

وبالرغم من أن هابرماس يستلهم كثيرا من قضايا وأساليب تفكيره من هذا الميراث النقدي، إلا أنه يصر على الرجوع إلى ماكس فيبر، بل أكثر من ذلك يدعو إلى الرجوع إلى كانط وهيغل لتأسيس ملامح نظرية للحداثة والتواصلية ففيبر – حسب هابرماس – قد "تركب أثرا في شكل شذرات".

---

[57] . Ibid.P93.
[58] . Ibid.P99.

إن التواصل كما يصوره هابرماس ينظر إلى اللغة في بعدها البراجماتي ، أي اللغة وهي منغمسة في تيار الإنتاج والإبداع، لكن ماهذا الإنتاج إنه وبصرامة واختصار التفاهم أو الوفاق entente.

يرقي " هابرماس " إلى بناء نظرية للمجتمع من خلال طرحه لمسألة العقلانية، والنظرية التي تضمن له ذلك هي نظرية السوسيولوجية للفعل ،لأنها تؤدي بنافي النهاية للأبتعاد عن فلسفات الوعي ، و تعمل على توضيح النظام الإجتماعي المتذاوت (l'ordre social intersubjectif)، و بالتالي فإن نظرية تذاوتية للفعل هي القادرة الآن على إيجاد ضياغة جديدة للمشاكل التي تعتبر الفلسفة إلى حد الآن تشكل مجالها الخاص[59].

من ثمة ، كان السبب الواضح و المباشر الذي أدى" بها برماس" إلى ((إدخال مفاهيم مثل : النشاط التواصلي ، و العالم المعاش ، هو سيطرة تلك النظريات ذات الطابع الأحادي و نتيجة لضعفها الواضح ،و تتعلق بـــ : نظرية التبادل الإجتماعي و الوظيفة المنهجية ، نظرية الفعل إنطلاقا من مجهودات السوسيولوجية ، و فينومولوجيا الوعي الذاتي ... إلخ)[60].

و إنطلاقا من ذلك ، كان ضرورة بالنسبة " لها برماس" أن يقترح أربعة مفاهيم للفعل ، لتكوين نظريته في المجتمع .والتي يحللها ضمن العلاقات التي تربط بين الفاعل والعالم[61] ، وهذه العلاقة القائمة بين العنصرين ناتجة عن فعل الذوات تجاه نفسها وتجاه غيرها . لذلك فإن الفعل عند " هابرماس" يفهم على أنه : ((تحقيقا لمشروع عملي مؤسس على تأويل معين للوضعية (situation) إذ يتحقق ذلك بتحكم الفاعل في وضعية معينة ، و وضعية الفاعل تشكل جزءا من محيط الفاعل ، و هذا الجزء يتكون في ضوء إمكانيات الفعل ذات الدلالة بالنسبة للمشروع العملي و المدرجة كذلك من طرف الفاعل)[62]. نفهم من ذلك أن الفعل عند " هابرماس" يرتبط بالمواقف و التجارب التي يخوضها الفاعل لتنفيذ مشروعه ، فالفعل هو إنعكاس لتعبيرات و ممارسات الفاعل . و يرى " هابرماس" أن مفاهيم الفعل المستخدمة في

---

59 . Jurgen habermas: logique des sciences socials et autres essais. op –p414.
60 . Ibid P.41
2. يورغين هابرماس : " العلاقة بالعالم و مظاهر عقلانية الفعل ..." مصدر سابق ، ص 18 .

62 . Jurgen habermas : la pensé postmétaphisique essais philosophiques. op – cit . p 71

نظريات العلوم الإجتماعية تنقسم إلى 4 مفاهيم أساسية يمكن تمييزها في الإطار النظري للعلاقة (فاعل/ عالم)[63]:

1. الفعل الغائي (L'action téléologique) : يقوم الفاعل بإختيار مجموعة من الوسائل و الأدوات التي تحقق له النجاح ، قصد تحقيق غاية معينة[64]. و يتحول نموذج الفعل الغائي إلى نموذج الفعل الإستراتيجي عندما يأخذ الفاعل في حسابه قرارات فاعلين آخرين أو على الأقل فاعل واحد في تقييمه للنجاح و هذا النموذج من الفعل يأخذ معنى نفعيا . لأن العلاقات بين الأشخاص تنظم من خلال عمليات التبادل الخاصة بالسوق و السلطة[65]. و هذا النموذج من الفعل يفسر نظام الأداتي لأن الفاعل يشارك الآخر كوسيلة من وسائل تحقيق النجاح الذي يهدف إليه.

2. الفعل المضبوط بمعايير(l'action regulée par des normes): ويتعلق بأعضاء جماعة إجتماعية توجه سلوكها وفق قيم مشتركة ، ولا يتعلق بفعل فاعل معين منعزل على الأخرين. وهذا المعايير المتبعة ناتجة عن إتفاق حاصل بين أفراد الجماعة تتطلب إستجابة الأفردا في سلوكهم لهذه المعايير[66].

3. الفعل المسرحي (l'action dramaturgique) : أما هذا الفعل فهو لا يتعلق لا بالفرد الفاعل ولا بأعضاء الجماعة وإنما بالمشاركين في التفاعل، حيث يشكل كل واحد منهم بالنسبة للآخر دور الجمهور الذي يظهر أمامه. لأن الفاعل يكشف عن ذاتيته عندما يحتك بالجمهور وبإمكانه مراقبة الذين ينفذون إلى عالمه الخاص ، حيث يشكل التفاعل مجالا تنكشف فيه ذاتية كل فرد بالنسبة للأخر حينما ينفذ إليها[67]، وكأنه بمثابة ظاهرة يضايفهل الشعور ، هذا الفعل مستغل من طرف المناهج الفينو مولوجية .فالفعل الدرامي هو "الذي يقوم بإخراجعالم غير موضوعي في مواجهة عالم خارجي"[68].

---

63 . Arno Munster : " rasionalité et théorie de l'agir communicationel chez Habermas " op- cit . p 64

64. **يورغين هابرماس : " العلاقة بالعالم و مظاهر عقلانية الفعل ..." ، مصدر سابق ، ص 23.**

65 . **jurgen habermes:logique des sciencessociales et autres essais .op – cit .p419.**

66. **يورغين هابر ماس : " العلاقة بالعالم و مظاهر عقلانية الفعل ... " ، مصدر سابق ، ص 23.**

67. **المصدر نفسه ،ص 23**

68. **أرنوسبير : أزمة الإتصال في العالم الغربي ، ضمن كتاب نماذج من الفكر الفرنسي المعاصر ، ترجمة ، كاميليا صبحي ، تقديم ، وائل غالي ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، القاهرة ، 1998 ، ص 263**

4. الفعل التواصلي (l'action communicationnel) : إنطلاقا مما سبق ، يرى " هابر ماس " أن: "الفعل لا ينحصر في المستوى الاستراتيجي المتعلق بالحوار الذاتي للفاعل مع نفسه ، فينبغي على الفاعل من إعادة إنتاج الفعل داخله ، وأن يوجه إلى نفسه الملاحظات التي قد يطرحها عليه ملاحظ ما .فالفعل يفرض نوعا من التداخل بين الذوات الفاعلة ، وهذا يتم من خلال المشاركة في تواصل معبر عنه بواسطة اللغة"[69] إذن ، يتعلق مفهوم الفعل التواصلي بــــ : التفاعل بين شخصين على الأقل قادرين على الكلام والفعل يرتبطان بعلاقة بشخصية (interpersonnelle) ... يسعى الفاعلون وراء تفاهم حول موقف علمي لكي ينسقوا بصورةتوافقه خطط عملهم وبالتالي أفعالهم))[70]. فالأمر يتعلق بحصول إتفاق بين المشاركين نتيجة تأثير يمارس تبادليا بين الفاعلين والأخريين .وعلى هذا الأساس ، يفرق " هابرماس" بين أليتين للتنسيق بين الأفعال هما : "الإتفاق " و" التأثير"

69 . jurgen habermes:logique des sciencessociales et autres essais .op – cit .p416

70. بورغين هابر ماس : " العلاقة بالعالم و مظاهر عقلانية الفعل ... " ، مصدر سابق ، ص 23.

2. شروط تنسيق الفعل التواصلي :

إن مفهوم الفعل التواصلي يعتمد في شكله على تفاعل شخصين على الأقل ، يبحثان عن توافق حول أحد المواقف بهدف التنسيق والتوفيق بين خطط عملهم .لذا ينبغي توضيح الشروط والأليات التي تنظم وتنسق الفعل التواصلي .

أ. ألية الإتفاق ودعاوى الصلاحية :

نتيجة الإتفاق تصبح المعرفة متبادلة بالنظر إلى التأثير الخارجي الذي يمارسه الفاعلون على بعضهم البعض ، ويعني "هابر ماس" بالإتفاق: ((... أن المعنيين بالأمر يقبلون صلاحية معرفة ما ، أي بمعنى أخر يقبلون قوة الإلزام لمجاوزة الذات)) (43) .بمعنى أنه لا تتكون لدى الفاعلين معرفة متبادلة نتيجة الإتفاق الحاصل ، وهذا الإتفاق ناتج عن معرفة بيذاوته (intersebjectivitè) التي تكون محلا للنقد .وذلك الإتفاق يشكل إلتزاما متبادلا بين المشاركين في التفاعل ، ولا يجب أن يكون الغرض من الإتفاق حصول التفاهم بين المشاركين ومحاولة التأثير عليهم في نفس الوقت بممارسة ضغط معين للوصول إلى غاية معينة(44) .بمعنى أن: ((مفهوم التفاهم يحيل إلى إتفاق معلل عقلانيا ، حاصل بين المشاركين ، ويقاس هذا الإتفاق بإدعاءات الصحة (validitè) قابلة للنقد) (45) .

إذن ، للوصول إلى إجماع في إطار التفاهم يحدد "هابر ماس" معايير نصادق على صلاحيتها أو نصل إلى حقيقتها من خلال الإستناد إلى إدعاءات الصلاحية (des prètentions à la validitè) .وهي أيضا تقاس بمعيار الحقيقة : ((والحقيقة التي يراها " هابرماس" تتطلب

وضعا ثابتا (Invariant) (46) ، فيقول : ((كل ما هو حقيقي أو ليس كذلك ، هو تلك الملفوظات التي تترجم أو تعبر عن حالات معينة من الأشياء)) (47). فحقيقة ملفوظ ما هو الذي يثبت وجود شيء واقعي ما ، إذن الحقيقة هي إدعاء الصلاحية المرتبطة بملفوظات نثبتها ، و معنى الحقيقة يتوضح من خلال مفهوم الإستعمال أو التداول ، فالحقيقة تتضح من خلال تداولية نوع معين من مقولات أفعال الكلام (48).

و قد استند " هابرماس"، إلى نظرية أفعال الكلام (théorie des actes de paroles) لــ"أوسيتن" (J.L.Austin) (1911–1960) الذي قام بدراسة تعدد وظائف اللغة ، و وصل في الأخير أن لها وظيفة وصفية و تقديم إثباتات . لذا يقول : ((يجب أن تكون أفعال الكلام فعالة ، و تحقق مجموعة من الشروط يجب أن تكون كافية ، و يجب أن نكون قادرين على تبني العبارة في إطارالتصرفات المعلمة)) 1.

و قام " هابرماس " بإفتراض نوع معين من دعاوى أو مزاعم الصلاحية ، وعرضها للمناقشة داخل الإجماع (consensus).

وادعاء الصلاحية يكون مبررا عندما يرتبط بنوع من معين من أفعال الكلام: ونعلن عن ادعاء ما عندما نؤكد أن ما نثبته حقيقيا أي موجودا واقعيا. وبالتالي إن فكرة الحقيقة تعرض للمناقشة عندما يكون ادعاءء الصلاحية مبررا، وهذا التبرير لايمكن ان نقوم به منخلال موضوعات التخربة، فهابرماس يفرق بين الوقائع وموضوعات التجربة:"...فالواقع مايشكل خقيقة ملفوظ وموضوعات التخربة هي التي على أساسها نقوم بالإثباتات وتتمثل في الأخداث والأشخاص والأشياء...وعليه لايمكن ان نقوم بتخربة الوقائع ويستحيل إثبات الموضوعات"2

وعلى هذا الأساس يقترح هابرماس أربع أنواع من دعاوى الصلاحية، وهي3:

1–المعقولية:تدخل على المعنى التداولي للعلاقة المتداخلة بين الأشخاص ويعبر عنها بواسطة قضية ملفوظة.

2–الحقيقة: أن نعترف بحقيقة الملفوظ الناتج عن أفعال كلام المتحدثين.

3–الدقة ان نعترف بدقة المعيار أي ان يكون استخدام الكلمات والعبارات متفقا مع السياق المعياري المتعارف عليه بواسطة فعل الكلام الحاصل.

4–الصدق:يجب أن لانشك في صدق الذوات المشاركة في التفاعل.

1.peter,kunzman etautres,atlas de la philosophie,tr,fr.de zoe housez et stephane robillard,librairie generale fr. pour le txte francaise, paris,1993,p221.

2.j.habermas,logique des sciences…op.sit,p280

3.ibid, p285.

وبهذا الفهم ، فإن صيغة البرهنة التي يعطيها الإجتماع لإدعاءات الصلاحية المفروضة والمطروحة للمنقاشة في ذات الوفت ، هي التي تكون إداعاءا للصلاحية مبررا خطابيا . وهذه المواقف التي يبديها الفاعلون هي التي تعبر عن قبول أو رفض الحجج والبراهين المقدمة لإثبات إدعاءات الصحة ، وليس حول الإدعاءات نفسها[71] – أي لا تبحث في حقيقتها – وكل ذلك يتجسد من خلال إمكانية تحقيق قواعد للتفاهم بين المشاركين في التفاعل ، وقوة البرهنة التي يصل إليهاالفاعلون هي التي تؤسس أخلاقيات المناقشة ، والتي تنتج عن مدى فاعلية المعايير المفترضة للصلاحية ضمن أفق التواصل بين الذوات[72]. بمعنى : ((أن المتحاورين يعتمدون في خطاباتهم المتبادلة على قوة البرهنة التي تتمتع بها أفكا رهم))[73]. ويبقى الوعي الحقيقي هو الذي يقود هذه العقول المتحاورة إلى ضرورة العمل على تحقيق المرجعيات السابقة التي هي معايير المعرفة والحقيقية لبلوغ تواصل لغوي كفؤ.

ويعني ، "هابرماس" بأن إدعاءات الصلاحية قابلة للنقد لأنها :((... تميز مختلف مقولات معرفة متجسدة رمزيا في عبارات ، ويمكن أن تحلل هذه العبارات على نحو أدق وذلك من ناحيتين : أولا : من ناحية الطريقة التي يمكن أن تبررها هذه العبارات ، ثانيا : من ناحية الطريقة التي يستتد الفاعلون إلى شيئ ما في العالم ، عندما يستعملون هذه العبارات))[74]

---

71. محمد نور الدين افاية : الحداثة والتواصل ...، مرجع سابق ، ص 191.

72. المرجع نفسه: ص209.

73. مطاع الصفدي : مغامرة الإختلاف والحادثة (2) : التداولي / التواصلي " ، من ، الفكر العربي المعاصر ، مجلة شهرية تصدر عن مركز الإنماء القومي ، بيروت ، باريس ، العدد 46، 1987 ، ص 14.

74. بورغن هابر ماس : " العلاقة بالعالم ومظاهر عقلانية الفعل ... " ، مصدر سابق ص 18

إنطلاقا مما سبق ، فإن " هابر ماس "[75] يحاول تجسيد خطاب أخلاقي يؤمن بحصول المناقشة أو الخطاب . فهو يهدف إلى تعريف وتمييز جملة من المعايير الأخلاقية، التي ليست خاصة بالشخص الذي يتقبلها، بل إن تقديم الحجج وجلب معايير أخلاقية تجعل من أفكارنا تقبل في منافذ مهمة ، أي تكون هذه المعايير مهمة لكل الناس ، فحججنا موجهة نحو قيادة الأخرين عن طريق البراهين للإتفاق معنا على هذه الإدعاءات ، فالإستعمال الأكيد لهذه المعايير هو الذي يؤدي بنا ما يسميه "هابرماس" بالفعل التواصلي ، هذا الفعل الذي يعرف القدرة على التفكير ، وتقديم الحجج القائمة على العقل عن طريق الخطاب للوصول إلى معايير كلية.

ب. اللغة والتفاهم :

يقوم مفهوم النشاط التواصلي ، على إفتراض اللغة كوسيط من أجل عمليات التفاهم ، أي تلك العمليات التي يتم من خلالها الإعلان عن إدعاءات الصلاحية من طرف المشاركين ، والتي يمكن أن تقبل أو ترفض ، وقبل التعرض إلى السباق الذي يستعرض فيه " هابر ماس " عنصر التفاهم .لابد من التعرف على طبيعة هذه اللغة التي تشكل واسطة لعمليات التواصل.

فالتواصل عند "هابر ماس " يتم بواسطة اللغة اليومية العادية ويعرفها بأنها : ((تشكل نسقا من القواعد تساعد على توليد تعبيرات لدرجة أن كل تعبير مصاغ بشكل صحيح يعتبر عنصرا من عناصر اللغة ، ومن ثمة فإن الذوات القادرة على إستعمال هذه التعبيرات تشارك في عمليات التواصل لأنها تستطيع التعبير وفهم الجمل والجواب عليها))[76] لأن اللغة اليومية هي الأقرب إلى إحداث إنفعال ضمن أليات التواصل ، فهي تعتمد ((على قوة الدال ومباشرته ، وتستند إلى جانب الماورائية القيمية والنمطية العائدة لهيكلة الجماعة وإستمراريتها))[77]. فاللغة هي : ((بنية تساعد داخل علاقة حوارية على التعبير عن الفردي من خلال المقولات العامة ... والتي تقوم بوظيفة التنظيم المنهجي للتجربة التواصلية اليومية للتفهم مع الذات ومع الأخرين))[78]. نعرف مما سبق ، أن للغة بالنسبة "لهابر ماس " تشكل

---

[75] . Jurgen habermas : logique des sciences sociales et autres essais .op-cit.p 289
[76] . Jurgen habermas : logique des sciences sociales et autrse essais .op- cit.p332.

[77]. مطاع الصفدي : مغامرة الإختلاف والحادثة (2) : التداولي / التواصلي "، مرجع سابق ، ص 14.

[78]. محمد نور الدين افاية : الحادثة والتواصل ... ، مرجع سابق ،ص 66.

بعمق خاصية إجتماعية وتشمل جميع المجتمعات الإنسانية، وهي لا تختلف عن اللغة العادية فيتجنشتين (ludwig wiittge nstein) (1888–1951) الذي يرى أن وظيفتها هي التواصل والتفاهم مع الأخرين ومحاولة التأثير فيهم.

فاللغة هي الحد الفاصل بين مختلف المعايير التي تقوم المجتمع والفرد ، فهي : ((تحقق بذلك المبدأ التركبي لكل مجتمع بحيث يقوم الفعل التواصليعلى أساس تزامني بين الأفراد والجماعات ، كما على إيقاع تتابعي تطوري بينهما ...))[79] نفهم من هذا النص ، أن التواصل يخضع هو كذلك مثل اللغة إلى ثنائية (التزامن / التعاقب) ، على أساس أنه يفترض اللغة كواسطة للتفاعل .فإذا نظرا إلى التواصل من زواية التزامن ، فهو يقوم بإتباع العلاقات الواعية بين الذرات وتفاعلها فيما بينها على أساس ثابت .ومن خلال التعاقب ،فالتواصل ، يقوم برصد العلاقات التذاوتية بين الأشخاص وتطورها ، والتعاون التفاعلي مع بعضها البعض لتفسير شيئ ما موجود في العالم ، أو لتحقيق مخططاتهم اليومية .وهكذا ، فإن اللغة اليومية العادية هي الملائمة للفعل التواصلي القائم علة قواعد الإستعمال والتدوال العفوي ، الهادف إلى تحقيق تفاعل بين الذوات وهي عكس اللغة التي تهدف إلى التطابق مع المعني وتهمل جانب الإتصال[80].

أما عن التفاهم ، فهو المجال الذي يتم في التنسيق بين الأفعال ومجاله اللغة .فبا لإضافة، إلى إدعاءات الصلاحية التي يقر بها الفاعلون (الحقيقة والدقة ، والصدق) .كان لزاما أن نبحث عن إمكانية لتحقيق قواعد للتفاهم المتبادل بين المشاركين[81]. فإذا لجأ الفاعل إلى خلق نوع من التفاهم ، فإنه يتعين عليه أن يعبر في تلفظه على ثلاثة إدعاءات للصلاحية، أي يكون ملفوظه صحيحا ودقيقا وصادقا ، فالمتحدث : ((يطالب بحقيقة الملفوظات والقضايا من حيث وجودها ، بدقة أفعاله ، وبسياقها المعياري ، وصدق تجاربة الذاتية))[82].

نفهم من هذا القول ، أن التفاهم مرتبط ترسيخ القواعد المعيارية المتفق حولها من طرف الفاعلين . وهنا يندرج النشاط المنظم بواسطة المعايير التي تعبر عن إتفاق حاصل

---

[79]. مطاع الصفدي : " مغامرة الإختلاف والحادثة (2) : التداولي / التواصلي " ، مرجع سابق ، ص 11.

[80]. المرجع نفسه : ص14.

[81]. محمد نور الدين أفاية : الحداثة والتواصل ... ، مرجع سابق ، ص 212.

[82]. Jurgen Habermas :logique des sciences sociales et autres essais .op –cit . p430.

بين الأفراد المشاركين في التفاعل ، وهذا المعايير هي التي توجه وتنظم سلوك الفاعلين ، وينتج عنها إلتزام أخلاقي ، يلتزم الأفراد بتطبيقه[83] فالتفاهم هو : ((... عملية إقناع متبادل تنسيق أفعال أطراف متعددة تشارك في أساس التبرير بواسطة الحجج المقدمة ، فالتفاهم أي يعني التواصل من أجل إتفاق حاصل ، مقبول))[84].

وعلى هذا الأساس ، فإنه : ((في الفاعلية التواصلية تتوقف نتيجة التفاعل ذاته على الإمكانية التي يمتلكها المشاركون للتفاهم ، بشكل متبادل ، حول تقيم صالح ، تذاوتيا ، لعلاقاتهم مع العالم ،وحسب هذا النموذج من الفعل فإن النجاح الوحيد الممكن لتفاعل ما يتمثل في الحصول المشترك على إجتماع مابين المشاركين))[85].

يعني هذا ، أن العلاقة التفاعلية تنتج عن أسلوب التفاهم أي يحدث عندما تصدر الأنا – فعل للكلام – ويقوم الأخر – بإصدار موقف إزاء هذا الفعل – هنا بالذات ، يحدث التذوات بين الأنا والاخر ، أي التداخل فيما بينهما وتنشأ علاقة تذاوتية[86]، وفق نمط معين من التفاهم المعقول ب فالعقل التواصلي ، الذي يجسده " هابر ماس " بطرحه هذا ، يقوم الحياة الإجتماعية ((على إعتبار أن أفعال التفاهم تلعب دور ألية تستهدف مخاتلف أشكال الممارسة التي يقوم بها الناس داخل العوالم المعاشة))[87]، فالعقل عنده لايستهدف مجالا أخرا غير مجال الواقع و المجتمع ، على هذا تعد نظريته في مستوى نظرية للمجتمع المعاصر الذي تفتت بين اليات التقنية .

إجمالا ، يمكن القول أن التجربة التواصلية تتم في سياق تفاعل إجتماعي ، يجمع بين شخصين على الأقل ، هذا التفاعل الذي يتغذى . بمضامن العالم المعاش (الثقافة والمجتمع والشخص) ، التي تتجدد بإستمرار من خلال الممارسة اليومية .

يصل فيه المشاركون الذين يتميزون بالقدرة على الكلام والفعل إلى الإجتماع حول إتفاق يقاس بإدعاءات الصلاحية (الصدق ، الدقة ، الحقيقة) . ونجاح هذا التفاعل يتجلى في

---

83 . Ibid :p 421

84. **محمد نور الدين افاية : الحداثة والتواصل ... ، مرجع سابق ، ص 212 .**

85. **المرجع نفسه : ص 209 .**

86. **المرجع نفسه : ص 210 .**

87 . Jurgen Habermas :le discours philosophique de la modernité . op –cit . p 373.

القدرة التي يظهرها الفاعلون على التفاهم من خلال اللغة اليومية العادية بهدف الوصول إلى نظرية إجتماعية للحقيقة . فكل هذه العوامل تسند نظرية التواصل عند " هابر ماس ".

وعليه يمكن القول ، أن المجرى الذي تتخذه عقلانية "هابر ماس " هو مجرى إختزالي إجرائي لأنها تجرد العقل من موارده التقلدية ومن محتوياته[88]. فالعقل الذي الذي نملكه ذو مستويين : أداة وفكر ، فيجب إستخدام الأداة لنقد الفكر ، ومن ثمة فالنقد لايستعمل عنده إلا من جانب السلب .ولهذا ، فالفلسفة لا يمكن أن تكون تواصلية ن لأنها في حاجة دائمة لخلق مفاهيم جديدة وبإستمرار .وهذا الإنتاج يتوقف على الإبداع الفردي ويستجيب لذاتيته – أي الفرد –.

لذا، ففعل الإبداع والخلق لاينتج على ا لتواصل ، بل عن قوة اخرى مضادة له .فهذا النقاش الذي يؤدي الى الاتفاق لايعدو أن يكون إلا قاعدة نموذجية للظن[89]. ونجد ليوتار (j-f-lyotard-) في تحليله لفكرة الإجتماع التي ينشدها "هابر ماس" أن : ((الإجماع يكون حالة للمناقشات ولا نهايتها ، إنه بذلك أكبر مغالطة))[90]، "فهابرماس " في نظر ليوتار يسقط في مغالطات كثيرة بسبب عدم فهمه الجيد للعلوم الحديثة ،– إنه – يبحث عن إنسانية كذات كلية ، تبحث تحررها الإجتماعي بواسطة تنظيم " الإنقطاعات " المرخصة في كل العاب اللغة[91].

في الأخير ، يرى ليوتار أن نظرية "هابر ماس" ماهي إلا فلسفة أخرى في التاريخ ، فهي ترى أن : ((التفرد الحقيقي لا ينتج إلا عن وعي جميعي متطور .أي أن الأشكال الأصلية والأكثر تقدما من المنفرد وزمن شعور الفرد بإستقلاله وكيانة ومسؤولية قائمة على أساس أشكال أصلية أكثرا تطورا من التساند والإندماج الإجتماعي))[92].

فنظرية الفعل التواصلي في قلبها لإبستمولوجيا المثالية الألمانية الكلاسكية والفينومولوجيا ، تكون إذن مؤسسة لمقاربة إبستمولوجية تتجنب صراحة مايظهر عند الوضعية المتجاوزة للعالم فإبستمولوجيا الفعل التواصلي بدون إدارة التخلي عن طابعها

---

[88]. علي الشنوفي : " الفلسفة والتواصل " ، أعمال ملتقى الجمعية التونسية للدراسات الفلسفية ، مرجع سابق ، ص18.

[89]. المرجع نفسه : ص19.

[90] . Richard Rorty :Habermas – lyotard et la postmodernité . Traduit. Farncois la traveres.in .critique édition de minuit .paris.n 440-441.1984.p 183.

[91] . Ibid: p 183.

[92]. أشرف حسن منصور : " نقد هابر ماس لتيار ما بعد الحداثة " ، مرجع سابق ، ص 457 .

العلمي ، تحل مشكلة التواصل بين الأشخاص ، أين يكون الأنا مستندا إلى الأخر بكونه مشاركا في التفاعل.

إذن ، فالعقلانية التي يناشدها "هابر ماس " عقلانية تقوم على نسق إجتماعي ديموقراطي لايقصى أحد ، وبهدف التفاهم عن طريق اللغة العادية ، ومن جهة أخرى ، يسعى إلى تكوين أخلاق كلية . فالخطاب الأخلاقي عنده يتأ سس .بمعايير كلية ، وهذه الشروط تقاس بالإدعاءات الكلية .فالإجماع هوأساس وقاعدة لكل مناقشة ، تهدف إلى تحقيق خطاب يعبر حقيقة عن مجتمع متضامن يخدم معاييره وقيمه .وهذه المعايير هي إنطباع عن حالة المجتمع وليست إحترارا لتقاليده .ومن هنا ، فهو يتبنى موقف التحول اللغوي ، لأن فكرة المعرفة الكلية تتجسد في اللغة ذاتها.

3. التداوليات الصورية (الكلية):

إن جملة الشروط السابقة التي يحددها "هابرماس" لتحقيق التفاهم ضمن تواصل ناجح، يسندها إلى نظرية ينعتها بـــ:"التداوليات الكلية" (Pragmatique Universelle) ويسميها كذلك، أن معيار التفاهم الذي يصبو إليه هو معيار كلي ومن جانب آخر، لأن الشروط التي يضعها لعملية التواصل ليست قبلية ترسندتالية وإنما تتحقق مع التواصل، ولهذا يسميها براغماتية[93]. وفي تحديده لقواعد هذه النظرية ينتطلق من النتائج التي وصل إليها "آبل" (K.O. Appel) في أبحاثه والتي تتعلق بإلزاميات أخلاقيات الحوار[94].

---

93. أشرف حسن منصور: "نقد هابرماس لتيار ما بعد الحداثة"، مرجع سباق، ص 460.

94. Arno Munster : « Rationalité et théorie de l’agir communicationnel chez Habermas », op-cit, p 59.

فإذا كان الهدف من التفاهم، هو حصول اتفاق ما يقاس بإدعاءات الصلاحية، التي تم تبريرها ضمن الإجماع، أو برهنتها من خلال عملية المناقشة، فإنه إذ حصل وتعرض أحد هذه الإدعاءات إلى الشك أو لم يوفق الفاعلون على تبرير الإدعاء المفترض والبرهنة عليه، فإن التواصل يضطرب. ويصبح النشاط القائم دون فاعلية تواصلية، ويتحول إلى مجرد نشاط موجه نحو النجاح (نشاط استراتيجي) وليس نشاط موجه نحو التفاهم. ومن ثمة، فإن النظرية القادرة على إعادة تبرير إدعاء الصلاحية الذي أدى إلى اختلال التواصل[95]، وهي: نظرية التداوليات الكلية التي تعتمد على اللغة بشكل أساسي ومن منظورها التداولي. ويتعلق الأمر في هذه النظرية بـــ:"دراسة البعد التداولي للخطاب...هذا البعد التداولي يحيل إلى وجود متكلم (locuteur) وبالتالي إلى وضعية تواصلية، يتدخل فيها لتحديد قيمة الحقيقة..."[96]. هذا النص أساسي بالنسبة إلينا، ونلاحظ من خلاله، أن "هابرماس" يربط التداوليات بأفعال الكلام التي يصدرها الفاعل أو المتكلم إزاء فعل تواصلي ما، لإثبات حقيقة شيء ما موجود في الواقع. فالمفهوم الأساسي لنظرية أفعال الكلام المرتبطة بالتداوليات الكلية، يتمثل في الصياغة الموضوعية للوحدات الأولية للخطاب (الملفوظات) وبالمقابل يتم صياغة الوحدات اللغوية بشكل موضوعي (الجمل). فالمتكلم، عليه بصياغة جمل نحوية صحيحة، والتعبير عنها بطريقة صحيحة[97]. فالوحدة الأولية في تشكيل الخطاب هي "فعل الكلام" (Acte de parole)، أما الوحدة الأولية للغة تتمثل في "الجمل"، ويجب أن تخضع إلى معايير الصحة في تمايزها، فالجملة المصاغة جيدا من الناحية النحوية تتفق وشروط المعقولية، لذا يتطلب من كل مشارك في التفاعل أن يكون مستعدا للتفاهم، وأن يؤكد في كل مرة إدعاءات الحقيقة والصدق والدقة[98]. والتداوليات الكلية بالنسبة "لهابرماس" تقوم بثلاث وظائف:

1. وصف شيء ما بواسطة جملة
2. التعبير عن قصد (أو نية) المتكلم (Locuteur)
3. إقامة علاقة بشخصية (Interpersonnelle) بين المتكلم والمستمع.

---

95. محمد نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل...، مرجع سابق، ص 197.
96. المرجع نفسه، ص 59.
97 . Jurgen Habermas : logique des sciences sociales et autres essais, op-cit, p 409.
98 . Ibid : p 409.

وهذه الوظائف تقاس بإدعاءات الصلاحية (الحقيقة، الدقة، الصدق)[99]. ويمكن أن نوضح ذلك من خلال المخطط التالي:

مجال الحقيقة	نمط العلاقات مع الواقع	إدعاءات الصلاحية	الوظائف الكلية لأفعال الكلام
طبيعة خارجية المجتمع طبيعة داخلية اللغة	الموضوعية المعيارية الذاتية تذاوتية	الحقيقة الصدق الدقة المعقولية	تقديم مخطط للأشياء إقامة علاقات بيشخصية التعبير عن تجارب الذاتية XXX

النموذج اللغوي من منظور التداوليات الكلية[100]. (الشكل 5)

"فنظرية أفعال الكلام تدرس القوة الكلامية حسب معيار التحليل التفاعلي لإقامة العلاقات المتداخلة بين الأشخاص"[101].

إن نظرية النشاط التواصلي تقوم على التفاهم، وتحكم على فعل الكلام أنه صحيح أو مقبول، إذا قام المتكلم بالتعبير عن جملة بطريقة صادقة وفي قضية صحيحة. من هنا، نلاحظ أن أسس التواصل الذي يقيمه "هابرماس" في اللغة يرتبط بصدق القضية الصحيحة نحويا وبوجودها في الواقع، أي أن يتم التعبير عن هذا الواقع بطريقة صحيحة (نحوية)، وصادقة (إدعاءات الصلاحية)، وكل ذلك بهدف، إقامة علاقات متداخلة بين الأشخاص، والتعبير عن الذات بطريقة صادقة[102].

استنادا إلى المخطط السابق (الشكل 5)، ومن خلال ما خلصنا إليه من أن التواصل ترتبط فيه القضايا النحوية بواسطة إدعاءات الصلاحية مع العلاقات بالواقع. هادفا من خلال الوظائف التداولية المتعلقة بتقديم وصف لحالات الأشياء، وإقامة علاقات تذاوتية بين الأشخاص والتعبير عن التجارب الذاتية[103]. فإنه يتعين على القصد التواصلي للمتكلم أن يقوم بفعل دقيق بالقياس إلى السياق المعياري الذي تتحقق من خلاله علاقة تذاوتية، بينه وبين

99 . Jurgen Habermas : Logique des Sciences Sociales et Autres Essais, op-cit, p 369
100 . Ibid : p 411
101 . Ibid : p 370
102 . Ibid : p 409
103 . Ibid : p 409

المستمع على أساس أن تكون هذه العلاقة معترف بها بطريقة مشروعة، كما يجب أن يعبر عن ملفوظ حقيقي يساعد المستمع على فهم رأي ومعرفة قصد المتكلم، وعليه أن يلتزم الصدق في التعبير عن مشاعره ومقاصده[104]. وانطلاقا من ذلك، تصبح اللغة تحقق جملة من الوظائف الأساسية للتفاهم:

أ. إقامة العلاقات بين الأشخاص، وذلك برجوع المتكلم إلى عناصر النظام الاجتماعي

ب. تقديم حالات الأشياء والأحداث، بحيث يستند المتكلم إلى عناصر حالات العالم والأشياء الموجودة

ج. إبراز التجارب برجوع المتكلم إلى عناصر العالم الذاتي[105].

نفهم من هذا، أن تحقيق التفاهم بواسطة اللغة في العالم المعيش يؤدي إلى تحقيق الانتماء للفاعل أو للذات إلى العوالم التي يفترضها "هابرماس"، حيث يتعلق الأمر في الوظيفة الأولى بالعالم الاجتماعي، والثانية بالعالم الموضوعي، وفي الأخير بالعالم الذاتي. فالذات تتواصل مع العالم الذي تنتمي إليه وتحاول أن تكشف من خلاله عن ذاتيها. يرى "هابرماس"، أن: "الفاعلين هم أنفسهم الذين يبحثون عن التوافق ويعتمدون الحقيقة والصحة والصدق مقياسا لهم، أي أنهم، يعتمدون المطابقة وعدم المطابقة بين الفعل اللغوي، من جهة، والعوالم الثلاثة التي يرتبط بها الفاعل بعبارته، من جهة أخرى"[106].

بمعنى :"أن هذه العلاقة تقوم بين العبارة و:

– العالم الموضوعي (كمجموع كل الكيانات التي يمكن إعلام ملفوظات صحيحة بشأنها)

– العالم الاجتماعي (كمجموع كل العلاقات البيشخصية المنظمة بقوانين)

– العالم الذاتي (كمجموع التجارب المعيشة التي يكون للمتكلم نفاذ مميز إليها)"[107].

يخلص "هابرماس" إلى أن تصوره للتداوليات الصورية ضروري لإسناد نظرية الفاعلية التواصلية، ففضلا على أن نظرية التواصل تهدف إلى إرساء قواعد لنظرية نقدية للمجتمع، فلها بعد فلسفي لغوي، يتمثل في مساهمة هذه النظرية في تدعيم نظرية الدلالة

---

[104]. يورغين هابرماس: "العلاقة ومظاهر عقلانية الفعل..." مصدر سابق، ص 30.

[105] . Jurgen Habermas : Logique des Sciences Sociales et Autres essais, op-cit, p 369.

[106]. يورغين هابرماس: "العلاقة بالعالم ومظاهر عقلانية الفعل..." مصدر سابق، ص 30.

[107]. المصدر نفسه، ص 30.

وتوضيحها[108]. إن نظرية الدلالة، تتعلق بشروط استمرارية التفاعلات، في تواصل لغوي ما، أين يتم الاعتراف التذاوتي بإدعاء ما يؤسس نوع فعل الكلام الناتج عن الاتفاق الحاصل بالإجماع[109].

القول الذي يمكن أن نخلص إليه، هو أن حضور العقل ضروري للإعلان عن مراقبته، ومحاولته للكشف عن الأخطاء التي يقع فيها بسبب إصدار أحكام ما، وتقرير نتائج معينة، من خلال تأسيس خطاب معين ينطلق من معرفة تواصلية ويبتعد عن الأهداف والمصالح الغائية، لتحقيق فاعلية الذات، وحضورها القوي لتدعيم وتحقيق خصائص المعرفة[110]. فنظرية التداوليات الكلية تتعلق بتحليل الخصائص الكلية للممارسة الموجهة نحو التفاهم، وتطبيق مفهوم العقلانية التواصلية على العلاقات الاجتماعية وعلى العلاقات المؤسسة للتفاعل.

4. التواصل والهرمينوطيقا:

إن مفهوم التأويل الذي تحدث عنه "هابرماس"، ارتبط بحديثه عن التمييز بين أنواع المصالح التي تتحكم في عمليات المعرفة، ويتعلق الأمر هنا، بالمصلحة العملية (intérêt

---

[108]. محمد نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل...، مرجع سابق، ص 202.
[109]. المرجع نفسه، ص 202.
[110]. محمد نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل...، مرجع سابق، ص 202.

pratique). التي تحدد مجال تفاعل البشر فيما بينهم، أي تأويل أفعالنا تجاه بعضنا البعض[111]، ويهدف "هابرماس" من ذلك إلى الكشف عن الاضطرابات التي تصيب التفاعل وتسبب سوء الفهم.

أ. التواصل و التأويل:

التأويل عند "هابرماس" هو :"القدرة التي تكتسبها لما نتعلم التحكم في لغة طبيعية. وبالتالي فإنه يتعلق بالفعل، بفن تفهم المعنى القابل للتوصيل، وتوضيح هذا المعنى لما يكون التواصل مضطربا (مختلا)"[112]. فالتأويل عنده لا يمكن فهمه على أنه تقنية، بل يتعلق بتفهم المعنى الذي يتم عن طريق التأويل. وبالنسبة له :"فهم المعنى يستهدف المحتويات الدلالية للخطاب، وكذلك الدلالات المحددة أو المثبتة من خلال ما هو مكتوب، أو المحتوية في الأنساق الرمزية غير اللسانية على أساس مبدئي أنه يمكن إعادة ترجمتها في عبارات خطابية"[113]. في المقابل نجد "غادامير" (Hans Goerge Gadamer) (1900) يختلف فهمه للتأويل عن فهم "هابرماس" له فالنسبة لغادامير كل فهم هو تأويل، ووظيفة التأويل ترتبط بتفسير العناصر التي تتيح الفهم[114]. في حين التأويل عند "هابرماس" يشكل مرحلة لاحقة على الفهم، فالفهم هو الذي يؤسس الاهتمامات التأويلية، ويبقى الاختلاف الأساسي بينهما في الكشف عن طبيعة هذا الفهم.

ويذهب "هابرماس" إلى أن التأويل الفلسفي، لا يتعلق الأمر بفن بل بنقد، ذلك لأنه يجعل التجارب واعية. تحارب نقوم بها من خلال اللغة ضمن ممارسة مقدرتنا التواصلية. ودليلا هذه المقدرة هما البلاغة والتأويل، وهذا يعود إلى التجربة الخطابية التي تبحث العلاقة بين الفرد والمتكلم واللغة. فالمتكلم يمكنه استخدام إبداع اللغة الطبيعية، حتى يستجيب تلقائيا للوضعيات المتغيرة في الحياة، والتعرف على وضعيات جديدة، والتعبير عنها بلمفوظات (énoncés). وهذا يفترض مسبقا وجود نحو يسمح بالفهم والتعميم وفق قواعد عامة[115].

فالتجربة البلاغية على هذا النحو توضح لنا العلاقة بين اللغة والممارسة فهي تشكل :"علاقة نحوية مع تفاعلات ذات معايير اعتيادية وتعبيرات عن التجارب المعيشة"[116]. ذلك

---

111. إيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، مرجع سابق، ص 348.

112 . Jurgen Habermas : Logique des Sciences Sociales et Autres Essais, op-cit, p 293.

113 . Ibid : p 239

114 . Hans George Gadamer : Vérité et méthode, édition de seuil, Paris, 1976, p 135.

115 . Jurgen Habermas : Logique des Sciences Sociales et Autres Essais, op-cit, p 242-243

116 . Ibid : P 244.

لأن التواصل بواسطة اللغة العادية لا يكون في صورته المثلى، لذا وجب على اللغة والفعل أن يؤديا دورهما تبادليا، فيترجم أحدهما الأخر، ويدلل "هابرماس" على هذه المسألة بذكر تصور "فيتجنشتين" (Ludwig Wittgenstein) حول لعبة اللغة، فيوضح أن نحو لعبة اللغة يفهم بشكل ممارسة في كل لحظاته فهو لا يحل الربط بين الرموز، وإنما يقوم بتأويل رموز اللغة عبر أفعال وتعبيرات[117]. فاللغة العادية عند "هابرماس" تمثل الحقل الذي تنتظم فيه تعبيرات التجربة المعيشة، وتصبح اللغة قادرة على تأويل نفسه بنفسها، ومهمة التأويل تكمن في تحليل رموز هذا التأويل الذاتي الذي نقوم به اللغة[118]. يفهم من ذلك بالنسبة لنا أن فيلسوفنا يربط التأويل في علاقته بالنحو والممارسة وهذا ما نجده أيضا عند "شلاير ماخر" (Frediric Schleirmarcher) (1834-1868) حينما يحدده تقنيتين للتأويل تتعلق الأولى بالقاعدة النحوية أي بدراسة الخطابات المشتركة ومميزاتها، لكن القاعدة الثانية، والتي تتوجه نحو فردانية الذات المبدعة. وهذا نا ينفيه "هابرماس" فلا وجود لهذه الذات المبدعة إلا في إطار التفاعل والاتفاق والتفاهم.

فالتجربة الفردية للتأويل تعود إلى فن الإقناع والتأكد الذي يعتبر التواصل مجالا للتبادل ولتأليف مواقف، ويسمح بتعديل بعضها الآخر. في المقابل نجد "غادامير"، وإذا كان لا يعير اهتماما لعلاقة التأويل بالنحو والبلاغة، فهو يركز على الممارسة لأنه يعتبر التأويل والفهم والتفسير عبارة عن ممارسات يقوم بها أفراد المجتمع. في حين الممارسة عند "هابرماس" تعكس التجارب الحديثة والخبرات المعيشة. فالاختلاف القائم بين "هابرماس" و"غادامير" هو في فهم طبيعة هذه الممارسة، التي يحيلنا إلى فهمها كلا منهما.

هكذا، فإن الممارسة هي التي تعبر عن المقدرة التواصلية بالنسبة "لهابرماس" ولذلك فهو يذهب إلى التمييز بين التأويل والعلم الألسوني، حيث يقول :"إن التأويل يتميز بوضوح الخطاب والفهم المهذب عكس العلم الألسوني، الذي لا يتسم بالكفاءة التواصلية بحيث لا يستند إلى قدرة المتكلمين للمشاركة عن طريق الكلام أو الفهم في التواصل بواسطة اللغة

[117] . **Jurgen habermas : Logique des Sciences Sociales et Autres Essais, op-cit, p 244.**

[118]. **محمد نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل...مرجع سابق، ص 75.**

العادية"[119]. فالألسونية تتميز بالبعد المجرد، حيث قدرة المتكلم تتمثل في تحكمه في نسق القواعد المجردة، المؤلفة للغة الطبيعة[120].

إن هذا التمييز الذي يقدمه "هابرماس"، يقوم بشكل أساسي على نظريته في الفعل، فالتأويل هو نتيجة للفعل الذي يقوم به الشخص في تفاعل ما، والذي يتمتع بقدرته على الكلام والفعل، أي نتيجة خبراته اليومية المعيشة. في حين، العلم الألسوني لا يتصف بفعل يحدثه متكلم ما، إلا من خلال إتباعه لنسق من المعايير والقواعد التي يمتثل لها في ممارساته.

وعليه، يرى "هابرماس" أن :"الألسونية تهدف إلى إعادة تشكيل نسق القواعد التي تسمح بتوليد كل العناصر الممكنة السليمة نحويا والمهمة دلاليا ضمن اللغة الطبيعية، بينما التأويل يفكر في الخبرات أو التجارب الأساسية التي يقوم بها متكلم كفؤ على مستوى التواصل"[121].

والهدف من التأويل، هو توصيل المعنى غير القابل للوصف على المستوى الفردي، والتأويل يستهدف ثلاث مستويات حسب التصنيف الذي قدمه "دلتاي" (W. Delthey) (1911-1833) والذي يعتمده "هابرماس" وهو:

"التعبيرات الشفوية، والأفعال، وتعبيرات التجربة المعيشة، ولا يمكن فهم بنية اللغة العادية التي يقابلها التحقق الخاص للتفهم التأويلي، إلا إذا تم الأخذ بعين الاعتبار إدماج هذه المستويات الثلاث في الممارسة اليومية المعيشة، لأنه في إطار العوالم الاجتماعية المعيشة لا ينفصل التواصل بواسطة اللغة العادية عن التفاعلات المعتادة وتعبيرات التجربة اليومية المعيشة"[122]، فمختلف الأفعال تؤول اعتمادا على التواصل اللغوي.

إذن لجوء "هابرماس" إلى علوم التأويل كونها تطرح المعطيات المطلوبة لخدمة البراهين والأدلة التي تستخدمها الألسونية العامة. فالمشاركون المتواجدون في التجربة التواصلية يساهمون في ذلك، أي في لعبة الألسونية. فعلوم التأويل تراقب وصف بنيات هذه النظرية، لذلك كان لزاما الحديث عن هذه التجربة، لأنه من جهة أخرى، التجربة التأويلية تقوم بالإصلاح بواسطة إبراز أفكار عقلانية تؤكد تأثيرها في اللغة[123]. فارتباط اللغة

119 . Jurgen Habermas : Logique des Sciences Sociales et Autres Essais, op-cit, p 244
120 . Ibid : p 244
121 . Ibid : p 245.
122 . Ibid : p 74 - 75
123 .Paul Laurent Assous et Gérard raulet : Marxisme et Théorie Critique, op-cit, p 210

بالتجربة التواصلية هو الذي أدى إلى ظهور علوم التأويل، ودورها يتعلق بفهم الطرق والوسائل التي يتم عن طريقها التفاعل، في إطار التنظيمات الاجتماعية.

والتأويل يستدعي أن يكون له لحظة من التأمل الذاتي، فهو لا يقتصر أن يكون منهجا خاصا بالعلوم الوضعية، والفلسفة، بل كذلك علوم التأويل، "فهابرماس" يؤكد بأن تقوم هذه العلوم بوظيفة نقدية. والتأمل الذاتي يفترض منهجا للتأويل هو :"الذي يسمح للفرد الواعي باستشعار الافتراضات المسبقة اللاشعورية..."[124]، أي هو التفكير في شروط إمكان الذات الواعية والعارفة القادرة على الكلام والفعل وهكذا، فالتأمل الذاتي ضروري بالنسبة لعلوم التأويل، لفهم تلك التقاليد الممارسة ونقوم انطلاقا منها بفرض نوع من التأويل النقدي للذات، من أجل تحررها. وبذلك يصبح التأويل أساسي بالنسبة لمشروع التواصل.

وما يهمنا في بحثنا هذا، هو السؤال الذي يطرحه "هابرماس" :"هل يمكن أن توجد نظرية مناسبة لبنية اللغات الطبيعية، يمكنها وضع تأسيس فهم للمعنى مكفول من وجهة نظر منهجية؟"[125]. يجيب "هابرماس" على هذا السؤال بأن هناك جانبين يمكنهما تقديم الشروحات التي يستند إليها الفهم التأويلي، وهما الشروحات التي يقدمها التحليل النفسي*.

وهو ميدان تطبيقي، والجانب الآخر بنقد الإيديولوجيا. فالفرد قد يقوم بعملية إنتاج لبعض الأشياء، ولا يدرك نواياه الخاصة. ويمكن فهم هذه المظاهر على أنها تشكل ما يسمى "بالتواصل المشوه" (Communication systématiquement déformée)[126]. وهذا يفترض :"نظرية يكون موضوعها التواصل بواسطة اللغة العادية، حتى يسمح بفهم المعنى الذي أخفي بطريقة مرضية"[127]. فهابرماس يبحث عن علم نقدي من صنف التحليل النفسي قادرا على الكشف عن الصلة القائمة بين تأويل العالم والقدرة الطبيعية الخاصة بالتواصل بواسطة اللغة العادية.

ب. التواصل والتحليل النفسي:

---

124 . Jurgen Habermas : Logique des Sciences Sociales et Autres Essais, op-cit, p 245.
125 . Ibid : p 250
(*) هو منهج للتحليل النفسي اكتشف من طرف العالم النمساوي الأصل "فرويد" (S. Freud) (1856-1993). وتنتهي هذه الطريقة خصوصا (وليس حصريا) إلى تأويل المقاومات ونقلها. فهي نظرية للسلوكات والشخصيات العادية وتركز على شرح وفهم ما هو مبهم في النظريات وكذلك لبحث عن المعكيات من أجل الاستيعاب، ومحاولة إدراك المرض.
- Henri Piéron : Vocabulaire de la Psychologie, presses universitaires de Frances, Paris, 6ème édition, 1979, p 359-360
126 . Jurgen Habermas : Logique des Sciences Sociales et Autres Essais, op-cit, p 250
127 . Ibid : p 250

إن ميدان تطبيق التأويل :"يتوافق وحدود التواصل السوي" (Communication Normale)، بواسطة اللغة العادية، فالفهم الذي تملكه الهيرمونيطيقيا عن ذاتها لا يمكن إعادة البث فيها سوى انطلاقا من "الخطاب العادي" (Discours Normal) حيث انه إذا وجد مرض غير بين فإنه يظهر أشكالا من التواصل المشوه نسقيا"[128]، وهذا الاضطراب ينتج بسبب الخطأ في تفسير أقوال الآخر، والخطأ الناتج لا يمكن إدراكه من المصالح المعنية بالخطاب، وربما فقط من أحد الأغيار[129].

فالتحليل النفسي، يلعب دورا هاما في التأويل وتوضيح مسألة المعنى. و"هابرماس" يعتبر التحليل النفسي من العلوم الاجتماعية النقدية المحفزة على التحرر (تحرير الذات)، لذلك فهو يستدعي أدوات التحليل النفسي لتفهم الذات وتحليلها[130]. والتحليل النفسي يفهم أيضا على أنه تأمل ذاتي ينظر من خلاله إلى الذات بطريقة ممنهجة :"فمن خلال التأمل الذاتي يمكن تفهم الأعراض التي تمر بها الذات الفردية من حالات مرضية، أو عادية"[131]. فالذات تمر بمرحلتين :"المرحلة الأولى تفقد فيها السيطرة على نفسها، بمعنى أنها تفقد تواصلها مع ذاتها، وتفقد بالتالي هويتها. والمرحلة الثانية فهي التي تقود فيها الذات عن طريق المحلل النفسي النظر إلى ذاتها، وتعيد اكتشاف هويتها وتدرك الاضطراب الذي أصابها، بأنه جزء من عملية وعي الذات بذاتها..."[132]. فالتحليل النفسي له أهمية بالغة بالنسبة لعملية التواصل، إذ يحدد علاقة الإنسان بذاته وبالآخر، ويعيد بعث تواصل الذات مع نفسها، وتواصلها مع الآخرين في إطار علاقة حوارية.

ويستثمر "هابرماس" قراءته "لفرويد" (S. Freud)(1856-1939) من خلال استخدامه لما يسميه "فرويد" "بالوهم" (Illusion)، هذه الآلية تتشابك مع هيمنة الإيديولوجيا لخلق تواصل مشوه[133]. والوهم يشكل إرثا تتداوله الحضارات، وربما يصبح تراثا يطرح نفسه كموضوع للدراسة والتحليل، وهنا يندرج التحليل النفسي كوجه من أوجه التأويل. ويذهب "هابرماس" إلى اعتبار أن اللغة تلعب دورا أيديولوجيا, ولذلك يتدخل التحليل النفسي لتحليل هذه اللغة فهو :"يظهر لنا بوصفه دراسة تأويلية للسلوك المحفز بشكل لا واع، وبالتالي له علاقة بالتفسير

[128]. Ibid : p 251
[129]. Ibid : p 252

[130]. محمد نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل...، مرجع سابق، ص 78.
[131]. المرجع نفسه، ص 78.
[132]. المرجع نفسه: ص 78.
[133]. محمد نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل...مرجع سابق، ص 79.

النقدي للنصوص أكثر مما يرتبك بالعالم التجريبي"[134]. فالتأويل هو عملية تفسير وتوليد لنمط التواصل، ويتدخل كلما تعرض التواصل إلى اضطراب بسبب نقله من لغة إلى لغة مختلفة، ويعمل على توضيح المعنى وتوصيله، وترتبط المسألة هنا بالحقيقة[135]. والتي تعود مباشرة إلى العقل الذي لا يتوقف عن مراجعة هذه الحقيقة، لأنه لا يكف هو ذاته عن مراجعة مفاهيمه وأدواته ونتائجه إذن، فالتحليل النفسي يساعدنا على الكشف عن أسباب المرض الذي أدى إلى تشويه التواصل، ويقدم لنا طريقة علاجية يطورها "فرويد" كمنظور للتأويل عن طريق التأمل الذاتي ذي توجه علاجي[136].

ولتوضيح فكرته عن التواصل المشوه، اعتمد "هابرماس" آراء "فرويد"، لأن هذا الأخير، يرى أن المؤسسات الاجتماعية وجودها لا يتوقف عند رعاية عملية الإنتاج وتطويره، بل يتعدى إلى كبت الشهوات التي تجعل الحياة الاجتماعية مستحيلة، وهذا الكبت هو ما يتسبب في تشويه عملية التواصل والتفاعل، لجهلنا القوى اللاشعورية التي تؤثر فينا وتحدد سلوكنا[137]. وهذه الظواهر ناتجة عن :"...أشباه تواصلات كاذبة ومن أفعال خاطئة لا قيمة لها في الحياة اليومية، وترجع إلى أعراض مرضية (باثولوجية) عصابية* وأمراض عقلية واضطرابات (نفس جسدية)"[138].

وسنركز، هنا على الظواهر العصابية على اعتبار أنه الميدان الذي تم توضيحه أكثر. ولتمييز هذه الظواهر الحياتية التي تم تشويهها في العصاب، وبذلك تصبح مظاهر لامعقولة[139]، وتنتج :"على مستوى الرموز اللغوية الألسونية، يتسم التواصل المشوه من خلال تطبيق تبتعد عن نسق القواعد الخاص باللغة العادية، يمكن أن يمس محتويات دلالية (سيمونتيكية) منعزلة، أو يمس حقول دلالية بكاملها"[140]. إذن من خلال التواصل المشوه يظهر عدم التوافق بين استخدام نسق القواعد اللغوية والأفعال والتعبيرات المصاحبة لها.

---

[134] . **Jurgen Habermas : Logique des Sciences Sociales et Autres Essais, op-cit, p 229**

[135]. **محمد نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل...، مرجع سابق، ص 79.**

[136]. **المرجع نفسه، ص 67.**

[137]. **إيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى يورغين هابرماس، مرجع سابق، ص 354**

(*) العصاب (Névrose): رمض نفسي أو مجموعة أعرض نفسية أي يتم التعبير الرمزي عن صراع نفسي داخلي ونعثر على جذوره في التاريخ الطفولي للذات، من أجل تأليف توفق بين الرغبة والدفاع.

- Jean laplanche et J-B Pontalis : Vocabulaire de la psychanalyse, presses universitaires de France, Paris, 6ème édition, 1978, p 267.

[138] . **Jurgen Habermas : Logique des Sciences Sociales et autres Essais, op-cit, p 252.**

[139] . **Jurgen Habermas : Logiques des Sciences Sociales et autres Essais, op-cit, p 252.**

[140] . **Ibid : p 252**

ويظهر من خلالها المريض أعرض تلازم تعبيراته الشفاهية أو هي الرموز التي تتخذها حركاته الجسدية، أو قيامه بسلوكات قهرية[141]. وهذا يعبر على :"أنه يوجد في الذات سدا تواصليا بين "أنا" الكفاءة اللغوية، الذي يشارك في ألعاب اللغة المستعملة ضمن التذاوتية وهذا "البلد الغريب" في عمق ذواتنا"[142].

لقد استعمل "هابرماس" التحليلات التي قام بها "ألفراد" (Alfred Lorenzer) المبنية على تأويلية الأعماق (Herméneutique des profondeurs) :"حيث قام بحوار تحليلي بين طبيب ومريض من وجهة نظر التحليل النفسي مشكلا كتحليل للغة. للكشف عن المواضع اللامعقولة من أجل فهم مشاهد تظهر تماثلا"[143]. وهذا التأويل التحليلي يهدف إلى :"توضيح المعنى اللامعقول للمظاهر العرضية طالما تعلق الأمر بالعصابات. وهذه المظاهر تمثل جزءا من لعبة اللغة المشوهة التي يتصرف وفقها المريض"[144]. بمعنى أن الطبيب يلعب دور الشريك المفكر القادر على تأويل مواقف التحويل كتكرار مشاهد طفولية، ومن خلال تكرار هذه المشاهد يشكل معجما المدلولات أو المعاني الخاصة التي تنتج عن هذه المظاهر العرضية. بحيث يسلك المريض بنفس الكيفية في مواقف التحويل، فالفهم هنا يتعلق بإعادة تشكيل المشهد الأول بكيفية تجعل إعادة التشكيل هذه مطابقة لما متعرف عليه من خلال فعل التأمل الذاتي للمريض[145].

يرى "هابرماس"، أن تحليل اللغة من وجهة تأويلية الأعماق تضع فرضيات نظرية تعتمدها خلال عملية التحليل، وهي ثلاث فرضيات:

1. يأتي بالتشوه النسقي للتواصل إلى التداخل بين مستويين لغويين

2. شرح نشوء التشوه بمساعدة نظرية متصلة بعمليات التنشئة الاجتماعية اللاسوية (مرضية)، التي تمتد إلى العلاقة بين نماذج التفاعل الطفولي، وتكون بنيات الشخصية.

3. إن التطور النسقي لهذه الفرضيات النظرية ليس ضروريا في سياقنا[146].

وسنركز في بحثنا على الحديث عن الفرضية الأولى، التي تقودنا إلى شروط التواصل العادي بواسطة اللغة العادية.

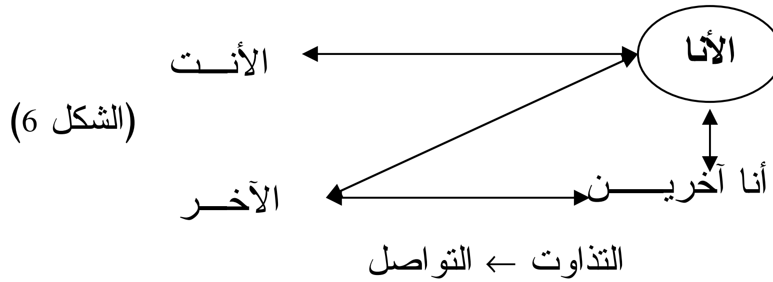
141 . **Ibid : p 253**
142 . **Ibid : p 253**
143 . **Ibid : p 253**
144 . **Ibid : p 254**
145 . **Ibid : p 254**
146 . **Jurgen Habermas : Logique des Sciences Sociales et autres Essais, op-cit, p 256**

أ. في لعبة اللغة اللامشوهة، توافق المظاهر الدلالية (ذات معنى) مع المستويات الثلاثة في التواصل : الابتعاد عن التناقض، تكامل المظاهر الرمزية عن طريق اللغة، أفعال متمثلة في تعابير جسدية.

ب. يخضع التواصل العادي (السوي) بواسطة اللغة العادية لقوانين تذاوتية معروفة: عمومية الدلالات المتماثلة بالنسبة لكل أفراد المجموعة اللغوية في التواصل، تشكيل المظاهر الكلامية حسب نسق القواعد النحوية، وجود معجم حسب الإطار الاجتماعي الثقافي من أجل المظاهر اللاكلامية التي لا تخضع لقواعد النحو[147].

جـ. في الخطاب العادي يكون المتكلمون واعين بالاختلافات الجذرية بين الفرد والموضوع (الشيء)، أي يميزون بين الخطاب الخارجي والخطاب الداخلي.

د. في التواصل العادي بواسطة اللغة العادية تتكون علاقة تذاوتية بين الأفراد المتعارفين تبادليا[148].



(الشكل 6)

التذاوت ← التواصل

هـ. يتميز الخطاب السوي في كون معنى الفئات: الجوهر، السببية، الحيز، المكان تختلف بحسب كونها تطبق على مواضع موجودة في عالم الأشخاص المتحدثين[149].

هكذا يرى "هابرماس" أن "تأويلية الأعماق" تتطلب فهما مسبقا يمتد إلى اللغات في شموليتها، في حين أن الفهم التأويلي ينطلق في كل مرة من فهم مسبق محدد بالتقليد، مشكل ومعدل داخل التواصل اللغوي[150].

يبقى في الأخير، أن نقول بأن فك رموز هذا التواصل المشوه بواسطة التحليل النفسي، يفترض وجود بناء رمزي، طالما أن تأويلية الأعماق تفهم الخلط في الخطاب العادي على أنه نكوص اضطراري نحو مستويات سابقة من التواصل[151].

[147]. Ibid : p 256
[148]. Ibid : p 257
[149]. Ibid ; p 258
[150]. Ibid : p 264
[151]. Jurgen Habermas : Logique des Sciences Sociales et Autres Essais, op-cit, p 261.

وما يمكن أن نخلص إليه، أن "هابرماس" يهدف للكشف عن الأسباب التي تؤدي إلى تشويه عملية التفاعل، نتيجة لسوء الفهم الذي يقع بين الأفراد لذلك يلجأ إلى استدعاء نوع آخر من العلوم النقدية، من شكل التحليل النفسي الذي يحاول أن يكشف عن هذه الأمراض الخفية، والتي تنطلق من قدرة الأشخاص على الفعل والكلام وتؤكد على وعيهم وعيا ذاتيا. فتنطلق هذه – العلوم – من مجموعة فرضيات، تؤدي إلى الكشف عن التشويه في التواصل أو في التفاعل، محاولة إصلاحه وتبقى هذه العلوم ترتبط باللغة بشكل أساسي.

وعليه يمكن القول، أن المجرى الذي تتخذه عقلانية "هابرماس" هو مجرى اختزالي إجرائي لأنها تجرد العقل من موارده التقليدية ومن محتوياته[152]. فالعقل الذي نملكه ذو مستويين: أداة وفكر، فيجب استخدام الأداة لنقد الفكر، ومن ثمة فالنقد لا يستعمل عنده إلا من جانب السلب. ولهذا فالفلسفة لا يمكن أن تكون تواصلية، لأنها في حاجة دائمة لخلق مفاهيم جديدة وباستمرار. وهذا الإنتاج يتوقف على الإبداع الفردي ويستجيب لذاتيته – أي الفرد –.

لذا، ففعل الإبداع والخلق لا ينتج عن التواصل، بل عن قوى أخرى مضادة له، فهذا النقاش يؤدي إلى الاتفاق لا يعدو أن يكون إلا قاعدة نموذجية للظن[153]. ونجد ليوتار (J.F. Lyotard) في تحليله لفكرة الإجماع التي ينشدها "هابرماس" أن :"الإجماع يكون حالة للمناقشات ولا نهايتها، إنه بذلك أكبر مغالطة"[154]، "فهابرماس" في نظر ليوتار يسقط في مغالطات كثيرة بسبب عدم فهمه الجيد للعلوم الحديثة، إنه يبحث عن إنسانية كذات كلية، تبحث تحررها الاجتماعي بواسطة تنظيم "الانقطاعات" المرخصة في كل ألعاب اللغة[155].

في الأخير، يرى ليوتار أن نظرية "هابرماس" ما هي إلا فلسفة أخرى في التاريخ، فهي ترى أن :"التفرد الحقيقي لا ينتج إلا عن وعي جمعي متطور، أي أن الأشكال الأصيلة والأكثر تقدما من التفرد وزمن شعور الفرد باستقلاله وكيانه ومسؤوليته قائمة على أساس أشكال أصيلة أكثر تطورا من التساند والاندماج الاجتماعي"[156].

فنظرية الفعل التواصلي في قلبها لإبستمولوجيا المثالية الألمانية الكلاسيكية والفينومولوجيا، تكون إذن مؤسسة لمقاربة إبستمولوجية تتجنب صراحة ما يظهر عند

---

[152]. علي الشنوفي :"الفلسفة والتواصل، أعمال ملتقى الجمعية التونسية للدراسات الفلسفية، مرجع سابق، ص 18.
[153]. المرجع نفسه: ص 19.
[154] .Richard Rorty : « Habermas – Lyotard et la postmodernitéé, traduit, François latraverse, in, critique, édition de minuit, Paris, n°440-441, 1984, p 183.
[155] . Ibid : p 183
[156]. أشرف حسن منصور: "نقد هابرماس لتيار ما عبد الحداثة"، مرجع سابق، ص 457.

الوضعية المتجاوزة للعالم. فإبستمولوجيا الفعل التواصلي بدون إرادة التخلي عن طابعها العلمي، تحل مشكلة التواصل بين الأشخاص، أين يكون الأنا مستندا إلى الآخر بكونه مشاركا في التفاعل[157].

إذن، فالعقلانية التي ينشدها "هابرماس" عقلانية تقوم على نسق اجتماعي ديمقراطي لا يقصي أحد، ويهدف التفاهم عن طريق اللغة العادية، ومن جهة أخرى، يسعى إلى تكوين أخلاق كلية. فالخطاب الأخلاقي عنده يتأسس بمعايير كلية، وهذه الشروط تقاس بالإدعاءات الكلية. فالإجماع هو أساس وقاعدة لكل مناقشة، تهدف إلى تحقيق خطاب يعبر حقيقة عن مجتمع متضامن يخدم معاييره وقيمه. وهذه المعايير هي انطباع عن حالة المجتمع وليست اجترار لتقاليده، ومن هنا، فهو يتبنى موقف التحول اللغوي، لأن فكرة المعرفة الكلية تتجسد في اللغة ذاتها[158].

---

[157] . Arno Munster : « rationalité et Théorie de l'agir communicationnel chez Habermas », op-cit, p62.

[158] . Robert Cavalier, carnegie mellon : 1996, « Introduction to Habermas's discourses ethics », op-cit

الفصل الثالث: الفضاء العمومي وأخلاقيات النقاش

1. الفلسفة والفضاء العمومي:

في مقالة "حدود الفلسفة" توقف هابرماس عند دور الفلسفة في اليونان من خلال نموذجي أفلاطون وأرسطو حيث خلص إلى أن هذين التصورين غير مقنعين لأنهما يعطيان أهمية كبيرة للعقل النظري في تحديد الممارسة سواء عند أفلاطون في تصوره للخلاص أو عند أرسطو في تصوره للسعادة[159].

أما إذا عدنا إلى العصر الهلنستي نجد أن الحكيم الذي يكرس حياته للتأمل كان يخص بالاحترام والتقدير وينظر إليه كنموذج لأنه يمثل الطريق نحو الخلاص وفيما بعد في القرون الوسطى تحدث الفلسفة عن وظيفتها التربوية والأخلاقية للدين[160].

وبانتقالنا إلى الوضعية الحديثة للفلسفة المنحدرة من الحق العقلاني ونظرية أخلاق الواجب (Déontologie) ذات النمط الكانطي فإننا نجدها مختلفة عن الفلسفة العملية المنحدرة من التراث الأخلاقي الأرسطي، فالنظريات الحديثة ،حسب هابرماس، عوضت المسألة الخاصة بما هو جيد (Bon) بمسألة سياسية أخلاقية أي بقواعد حياة مشتركة والتي ستكون عادلة وجيدة بالنسبة للجميع أي أننا انتقلنا من مرحلة الفردية المنعزلة إلى مرحلة الجماعية والتشاركية. فالعقل الموضوعي المجسد في الطبيعة أو في التاريخ الكوني تحول إلى ملكية ذاتية للفاعلين، فهؤلاء متساوون فيما بنيهم بالطبيعة ويسعون إلى تنظيم حياتهم بشكل جماعي، بحيث أن كل واحد يحافظ على استقلاليته، هذه الاستقلالية التي تصورها كانط وروسو كملكة لربط الإرادة الخاصة بالقوانين القابلة للتبني من طرف الجميع.

وانطلاقا من هذا التحول الذي عرفته الفلسفة في العصور الحديثة مع كانط وروسو كان هيغل يسعى في مشروعه الفلسفي إلى تحقيق المشروع الكانطي المتمثل في تحقيق العقل في التاريخ. فخلق مجتمع عادل بالنسبة إليه يتم بواسطة الطريق السياسي لممارسة ثورية، وهذا التصور ينم عن تأثر هيغل بأحداث الثورة الفرنسية، الأمر الذي جعله يعتبر أن الثورة جزء من الفلسفة، هذا البعد الثوري يجد امتداد له في الفلسفة الماركسية بالرغم من الانتقادات التي وجهها ماركس لهيغل. لقد عمل ماركس على تطوير الجانب النقدي في فلسفة هيغل

159 .Habermas : Vérité et Justification tr.Rainer Rochlitz, Gallimard 2001, p 248-249.
160 . Ibid, p 248.

وحول النظرية الهيغلية إلى نقد اقتصادي يهدف إلى تحقيق ثوري في المجتمع البورجوازي: هذا التحويل للفلسفة إلى المستوى العملي ،كما يراه ماركس، لم يكن ينتظر الفشل الذريع للتجربة السوفياتية لتكذيبه، بل أكدته انتقادات وجهت للنظرية الماركسية قبل الانهيار، وانتقادات هابرماس في هذا الباب لا تخلو من أهمية علمية إلى جانب ما قام به كارل بوبر أيضا[161].

لقد تأرجحت الفلسفة في نظر هابرماس بين مهمة خدمة اللاهوت والخلاص الديني، والممارسة الثورية لذا تجده يتتبع تاريخ الفلسفة عبر مسارها الطويل ويؤكد أنها "تراوحت بين الفكر المؤسس التسلطي والنقد ذي المنحى الأنطولوجي الذي يطال حضارتنا، والنزعة التشاؤمية ذات المنحى اليساري،[162] حتى أنها بلغت النقد الراديكالي الطوباوي"[163].

إن الفلسفة في نظر هابرماس تجاذبتها نزعات متعددة كلها، في مجملها نزعات تتعارض من حيث أهدافها العميقة مع النظام السياسي والاجتماعي والعالم المعيش.

لقد ظلت الفلسفة في خدمة اللاهوت وتأكيد شرعيته وهيمنته على العقل والوجود الإنساني حتى مجيء هيغل الذي وضع هذه العلاقة قيد البحث.

فرغم أن الفلسفة تتعارض مبدئيا من حيث سعيها الحر لطلب الحقيقة مع إدعاء هذه التقاليد الدينية صفة المرجعية المطلقة، إلا أن النقد الفلسفي لم يخرج بصورة كاملة عن هذا التراث اللاهوتي.

وحتى القانون الطبيعي العقلاني في القرن السابع عشر قد قام في المجتمع البرجوازي باستكمال التبرير المسيحي للتسلط السياسي[164]. بمعنى تواطؤ الفلسفة مع السلطة الدوغماتية الرجعية للمؤسسة الدينية في أوروبا. ويؤكد ذا هابرماس في معرض تبيانه العلاقة المشبوهة بين الفلسفة والدين: «إن التقليد الفلسفي والممارسة الدينية قد اكتفيا حتى هيغل بالاضطلاع

---

161 . Op cit, p250-251.

162

163. يورغن هابرماس "الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي"، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان، 1995، ص 20.

ويجب الإشارة هنا إلى أن هابرماس لا يحوز كتابا بهذا العنوان بل هذا الكتاب هو ترجمة لفصلين من فصول كتاب هابرماس "جوانب فلسفية وسياسية Profiles philosophiques et politiques"، استلهمها المترجم نظير جاهل.

164. يورغن هابرماس الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي، مرجع سابق، ص 31.

بوظائف مختلفة، فمنذ العصور القديمة القريبة وجد الفكر الفلسفي نفسه مضطرا لتحديد علاقته بالحقيقة المنقذة الخاصة بالدين اليهودي–المسيحي بوصفه دين خلاص»[165].

لقد اقتصرت مهمة الفلسفة على إيجاد مبررات منطقية للوحي وعقيدة الخلاص أي خدمة اللاهوت غير مبالية بالآراء المعارضة :"ولم تطمح في أي حال من الأحوال رغم جهود بوايس (Bôece) إلى الحلول مكان اليقين بالنجاة الذي يوفره الإيمان الديني"[166].

كما أن مونتاني Montaigne، حين أكد أن الفلسفة هي السبيل ليتعلم المرء كيف يموت، لم يقم سوى باسترجاع خطاب قديم.

فالفلسفة في رأي هابرماس ظلت نخبوية أي لم تنتشر قط بين العامة فقد ظلت محصورة في أبراجها العاجية، فمنذ نشوءها ، كانت ميزة هؤلاء العاطلين الخاملين البعيدين عن كل فعل منتج، التأمل النظري الخالص الذي لا يقدر عليه العامة. "فالفكرة المسبقة والقائلة بعجز السواد الأعظم من الناس بطبيعتهم، عن الفهم الفلسفي قد رافقت الفلسفة حتى هيغل.

فرغم أن فلاسفة الأنوار كسروا هذه الفكرة لفترة معينة إلا أن مشروعهم لم يضع قاعدة أساسية، وذلك لغياب نموذج تربوي معمم.

وما زاد غرابة الفلسفة أكثر – عن العالم المعيش – هو ازدياد سطوة العلم، فقد انحسر دور الفلسفة بشكل رهيب وأصبحت عاجزة عن تطوير نظرة إلى الكون بوسائلها الخاصة بعد أن ارتهنت كليا بنتائج العلوم الطبيعية وخاصة أمام سطوة وهيمنة الفيزياء.

لقد تخلت الفلسفة عن دورها التأسيسي لهذا العلم الجديد وكانت فلسفة الطبيعة الخاصة بهيغل آخر صيحة بجع في هذا الميدان، وما التجاؤها إلى نظرية المعرفة في القرن السابع عشر، أمام تصاعد المد العلمي إلا محض تمويه وإدعاء أجوف.

وأمام مد العلم الوضعي لم يبق للفلسفة إلا دور شكلي بحت متمثلا في الابستيمولوجيا التي هي تقزيم اضطراري لنظرية المعرفة.

يقول هابرماس: بعد هيجل أصبح الدفاع عن الفلسفة التأصيلية مستحيلا، حتى من موقع الانكفاء أما ظهور المذهب الوضعي أدى إلى حصر نظرية المعرفة بالابستمولوجيا أي بمعاودة بناء النظرية العلمية بعد التجربة[167].

---

[165]. يورغن هابرماس، المصدر نفسه، ص 32.
[166]. يورغن هابرماس: المصدر السابق، ص 32.

أي أنه لم يبق للفلسفة إلا التطفل على موائد وبقايا العلم التجريبي فقد أضحت مبحثا شكليا فارغا من أي اتصال بالعالم الحقيقي، فقد "أعادت تشكيل نفسها كابستمولوجيا متحولة إلى علم شكلي وهكذا فقدت كل صلة لها بالفلسفة النظرية"[168]. أي خسرت مبادئها الأولى وطبيعتها الأولى التي تتلخص في التنظير المبدئي للأشياء، فقد أصبحت تابعة لا متبوعة، فمن خدمة اللاهوت إلى خدمة العلم الذي انفصل عنها وخرج من رحمها.

ومع الهيغليين الجدد ومع الماركسيين بالخصوص والوجوديين والتاريخانيين اكتسبت الفلسفة العملية استقلاليتها، وباتت تستغني عن الأصل الأنطولوجي القديم، الذي اعتبره أرسطو عماد أي فلسفة سياسية أو أخلاقية...إضافة إلى أنها أصبحت تشتغل بالطبيعة بدل الاشتغال بالهم الإنساني*، وبذلك تجنبت ذلك التكثيف النظري لفلسفة التاريخ، وبهذا فقدت الفلسفة أي قدرة على إنتاج تصورات عن العالم ذات طابع اجتماعي كوني.

ثم ما فتئت أن اندفعت إلى تعاطي القضايا السياسية الأوروبي وحينها فقط أمكن التحدث عن فلسفات ثورية وأخرى رجعية، وفي هذا الجو تغيرت علاقة الفلسفة بالدين، فقد أصبحت سجالية بامتياز ، إذ ما إن امتلكت الفلسفة الطابع الاستقلالي عن المطلق حتى عمدت إلى نقد جذري لفكرة الواحد، الله الأحد الذي أصلته الأديان الكبرى. لقد خضع الدين اليهودي، المسيحي لنقد جذري من قبل هذا الفكر ما بعد الميتافيزيقي ولفكرة العقلنة "فهنا النقد لم يعد يتناول موضوعه من الداخل، كما فعل سبينوزا بل طال جذور الدين وفتح السبيل للعملية التاريخية النقدية التي بدأت بتفكيك العقائد منذ القرن التاسع عشر"[169].

لقد ورثت الفلسفة العملية بعد أن أصبحت مستقلة، دين الخلاص، وذلك بعد أن عجزت الميتافيزيقا عن التحول إلى مرجعية منافسة أو بديلة.

فالتواصل الملتبس الذي يربط التقاليد اللاهوتية العائدة للتاريخ الأوغسطيني (jaochimite) بفلسفة التاريخ البرجوازية التي ظهرت في القرن الثامن قد مهدت الساحة لاستقبال مبادئ النجاة في متن الفلسفة[170].

---

[167]. يورغن هابرماس، المصدر نفسه، ص 34.
[168]. يورغن هابرماس، المصدر نفسه، ص 34.
*. تشتغل بالطبيعة بدل الاشتغال بالهم الإنساني أي أصبحت فلسفة عملية تهتم بالفاعلية الإنسانية الطبيعية بدل الإغراق في تصورات كلية واهتمامات كونية شاملة وتنظيرات ميتافيزيقية أي انها أصبحت تفكر مع الأشياء لا فوق الأشياء.
[169]. يورغن هابرماس، الفلسفة والتصوف اليهودي: مصدر سابق ص 35.
[170]. يورغن هابرماس، التصوف اليهودي، مصدر سابق، ص 35.

لقد كان من الضروري، كما يقرر هابرماس، بداية تدمير الأسس الكونية إضافة إلى الأطر الفلسفية المتعالية التي كانت تؤمن الوحدة بين الفلسفة العملية والفلسفة النظرية، واستبدال الإدعاء الميتافيزيقي بإرساء الأصول، بالتفكير النقدي المقتصر على التاريخ البشري[171].

يجب على الفلسفة إذن تنعتق من كل فكر مطلق، فبعد الدين يجب تقويض فلسفة التعالي والذاتية من كانط إلى هيجل، ومن شلنغ إلى فخته، والكف عن كل فكر طوباوي يقطع مع العالم المعيش وتاريخ البشر وعالمهم اليومي ، فهذا هو مبدأ ومرجعية كل صدق وعقلانية وما عداه فهو محض أباطيل ، كما يعارض هابرماس كل نخبوية فلسفية ف "لقد حصرت الفلسفة بعدد ضئيل من النخبة المثقفة منذ أفلاطون من خلال فلسفة سياسية طالبت بحصر السلطة بالمتميزين الذين يتمتعون بالذكاء، وذلك في آن معا لتأمين مبرر فلسفي للسلطة، وتأمين شمولية العقيدة الفلسفية[172].

لقد سقط مع ماركس هذا الوهم النخبوي الصفوي* حين نادى بفكرة الحركة العمالية التي عارضت فكرة البرجوازية المثقفة التي أنشأتها تلك الفلسفة الأكاديمية المدرسية ذات التقاليد المغلقة والنخبوية المغرورة.

لقد اكتسبت الفلسفة "فعالية من نوع آخر تماما من خلال السبيل الذي فتحه ماركس أمامها، والذي قادها إلى الالتحاق بالحركة العمالية فهنا بدا أن الحواجز النخبوية التي جعلت الفلسفة متناقضة مع ذاتها بدأت تنهار، وهذا بالضبط ما قصده ماركس حين قال إنه لا بد من تخطي الفلسفة لتحقيقها[173].

لقد كفت الفلسفة أن تكون بحثا عن الأصول والإدعاء بتأويل الكائن من حيث شموليته انطلاقا من موقف الإثبات الموجب، وأضحت نقدا للأصول، فاعلية لا نظرية، نشاطا لا امتلاكا للحقيقة، تقدم للطريقة التقليدية التي اعتمدت لتحديد العلاقة بين النظرية والممارسة كمرجعية نهائية لكل نشاط اجتماعي.

لقد باتت الفلسفة نقدا لكل إدعاء شمولي أرسته المعرفة الميتافيزيقية والتأويل الديني للعالم والممارسات الطوباوية لذلك التراث الطويل للديانات الكبرى، وأضحت تهتم بالتحرر

---

171. يورغن هابرماس، مصدر سابق، ص 35.
172. يورغن هابرماس، المصدر نفسه، ص 36.
*. من الصفوة.
173. هابرماس: المصدر السابق، ص 38.

الذي يدفع نحو رحاب لمعرفة الحقيقة التي تتناقض مع كل تصور نخبوي كونه التراث الفلسفي عن نفسه منذ قوت طويلة جعله بمنأى عن كل نقد.

إن هابرماس يهدف، وهذا مأدركه تيودور أدورنو T.Adorno وماكس.هوركهايمر M.Horkheimer في نقدهما للأنوار، "جدلية العقل" فهذا النقد يتواصل مع الجدلية السلبية".

لقد علم أدورنو هابرماس أنه ليس من شأن الفلسفة اليوم أن تأمل في معرفة "المطلق" بل إن عليها أن تمتنع عن التفكير فيه.

يبحث هابرماس عن تحليل ظاهراتي تاريخي ونقدي يضبط تاريخية سؤال الفلسفة منذ "هيغل"، وتحول شكل التفلسف في الوقت نفسه، ويخلص إلى أن ذلك يرتسم في أربع خصائص، هي في الواقع تخص المسرح الفلسفي بألمانيا تحديدا:

1. تواصل مدهش بين المدارس والإشكاليات التأسيسية منذ العشرينات حتى الخمسينات والستينات (القرن 20) في البلدان الناطقة بالألمانية. ويمكن القول أن خمسة تيارات فرضت نفسها في هذه الحقبة، ومن الملفت للانتباه أن هابرماس يضع هيدغر ضمن هذا التراث ضمن ظواهرية تتجه إلى الأنطونولوجيا، كما يدرج هوسرل وضمن منطق استهلاكي (متعالي) هذه التيارات تتمثل في: فلسفة حول الحياة تعود إلى ديلتي w.Dilthery مع كارل.جاسبير K.jasper وليت Litt وسبرانجر Spranger ، وهي نزعة ذات صبغة وجودية من ناحية وهيغلية محدثة من ناحية أخرى، وأنتروبولوجيا فلسفية مع ماكس شيلر M.Sheler وبلسنرplessner وإرنست كاسيرر Cassirer بوجه ما، وفلسفة اجتماعية تقدية مع جورج لوكاش G.Lukacs، وأرنست بلوخ E.Bloche ووالتر بنجامين W. Benjamin وكارل كورشK.korch وهوركهاير M.Horkeimer تنحو إلى العودة إلى ماركس وهيغل. وأخيرا وضعية منطقية تدور حول حلقة فينا مع فدجنشتين Widgenstein و رودولف كارناب R.Carnap وكارل بوبر K.Popper.

2. المسحة الشخصية تصبغ كل فكر متفلسف، فلم تقدم الفلسفة بوصفها علما قائما، بل ظلت مشدودة إلى شخصية الفيلسوف، بما هو متكلم بليغ (Rhéteur) ، والملفت أيضا أن هيدغر يمثل هنا رمزا واضحا لهذه الخصيصة[174] إلى جانب ياسبرس وبلوخ وأدورنو...

---

[174]. HABERMAS , Profils philosophique... ;op.cit p 25 أيضا: فتحي المسكيني: هابرماس أم هيدغر أو كيف الكلام على الفلسفة، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي بيروت لبنان عدد مزدوج 84، 85 جانفي، فيفري 1991، ص 22 .

بمعنى أنه لم يتم التواصل على صعيد مضمون القضايا فحسب، بل أيضا على صعيد العلاقات الشخصية المافوق اتصالية. في هذا اللحاظ لا يمكننا أبدا أن نعتبر الفلسفة كعلم، وذلك لأنها ترتبط دائما بشخص الفيلسوف بوصفه معلما (ومؤلفا)[175].

وقد حافظت الفلسفة الألمانية في هذه الفترة بصبغة خطابية حتى لدى هؤلاء الذين انتفضوا ضد هذا المنحى باسم العلموية.3

3. تثبيت التفلسف في موضوعات بعينها هي الواقع التاريخي للفاشية معيارا للفكر ومضمونا له في كل تساؤل.

4. علاقة نقدية للفلسفة مع عصرها مما يضعها في تناقض مع نزعتها الأكاديمية[176].

وفي سياق مناقشة مهمة الفيلسوف، خاصة في السياق الألماني، لم يفت هابرماس أن يقوم بانتقاد التصور الهيدجري للفكر الذي ينصت للعالم والذي بإمكانه أن يغير قدر الحداثة المتخلى عنه من طرف الله، فهيدجر ،في نظر هابرماس، احتفظ للفلسفة بنزعة قدرية قيامية، ويعزو هابرماس هذا التوجه الهيدجري إلى التأثير النتشوي.

فهذه الصيغة الرؤيوية للفلسفة هي التي يسعى هابرماس لتجاوزها في زمننا الراهن لذا يقول:"إن الفلسفة التي تريد أن تجد لنفسها موطأ قدم في النسق المنظم للعلم والتي لا تستطيع أن تنسحب أو تتملص من وعيها المتمثل في القابلية للخطأ، يجب أن تتوقف عن الاعتقاد بقدرتها على تقديم كل الحلول وأن تكتفي بأن تحمل للعالم المعيش نمطا من التوجيه أقل درامية، وأن تدرك كذلك تصورا متواضعا وواقعيا حول نفسها باندماجها بشكل إحالي (Autoréférentielle) في البنيات المختلفة للعالم الحديث[177].

آن الأوان أن نفكر مع هيدغر ضد هيدغر[178]، مقولة يرفعها هابرماس لوضع حدود بينه وبين فيلسوف الغابة السوداء. فأصالة هيدغر تكمن في أنه قد حدد "الهيمنة" الحديثة للذات من داخل تاريخ الميتافيزيقا ذاته. لكن هابرماس لا يكتفي بالنقد الداخلي لما يقول الفكر الهيدغري عن نفسه بل ينبش في المسبقات التي حكمته أو أعاقت كل خروج. فالتفلسف عند هيدغر مصاب بمثل ما أصيب به كل فرد بألمانيا منذ لوكاش وهوسرل كما يرد أدورنو، فهم

---

[175]. و3 هابرماس، الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي، مصدر سابق، ص 15.

[176]. فيز المسكيني: المرجع نفسه، ص 22 وكذلك هابرماس الفلسفة الألمانية، المصدر نفسه، ص 18-19.

[177]. Habermas, Vérité et Justification, op.cit, p257..

[178]. Habermas : Profiles Philosophiques, op-cit, p99. .

منهمكون بثلاثة أشكال من التفاوت التاريخي (décalage) يجمعها هابرماس في لفظة سوسيولوجية هي التأخر:

1. نمز متأخر للرأسمالية مقارنة بالدول الأخرى
2. أمة متأخرة (مؤجلة)
3. حداثة مخالفة (Différence) لما تم في البلاد الأخرى[179].

يعترف هابرماس بأن الفلسفة لا تزال ممكنة بيد أنه يتساءل عن ضرورتها وإلى أي المهام هي مدعوة ومندوبة.

إنه يقر ضرورة التفلسف، ولا يقبل أن تنتهي الفلسفة إلى فكر ما عادت له القدرة على تقييم ذاته ولا أن يقر بأنه مطلق.

أن نفكر مع هيدغر أن نستعيد كانط، يعني التفلسف بما هو نقد[180]، أما أن نفكر ضده فهو ألا نحصر هذا النقد في تمرن مجاني على تفكر الذات لا يطبق على موضوعات التراث وحده، وعاجز عن مقاربة الفكر النسقي[181].

كما لا يعني التفلسف أن نحصر الفلسفة في "نخبوية" على الطريقة الأفلاطونية، أي تشخصن الفلسفة، بل يجب ملامسة الفكر اليومي على طريقة ماركس، فالفلسفة بما هي نقد لكل أصول ومبادئ أولى مزعومة ومقدمة في شكل أقانيم لا تمس استنادا إلى مرجعيات لاهوتية مطلقة، فهي جهاز تفكري نقدي للمجتمع نفسه، وحراب ضد كل إدعاء شمولي Totalisant قد تكرسه المعرفة الميتافيزيقية أو التأويل الديني للعالم.

إن هابرماس بنقده لهايدغر يدعونا إلى دحض التصور النخبوي الذي يحمله التراث الفلسفي عن نفسه، والانخراط بدل تلك الاستكبارية الشوهاء، في نقد عقلاني منور (Anfulärung) كوني لا ينفلت منه حتى النقد نفسه، هذا النقد الذاتي (Selbstanfklarüng) قد أدركه أدورنو بوصفه جدل العقل التنويري (Vernnuft)[182]، فإن تفكير هيدغر المفكك لميتافيزيقا العقل (Ratio) يجب استكماله بتفكير نقدي هو جدل التنوير، وهو ما حاوله هابرماس منذ كتابه "الفضاء العمومي" إلى "الفعل التواصلي" 1981.

---

179. الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي، ص 22، Habermas, ibid : pp29-30.
180. Habermas, profiles…op-cit, 42-43.
181. Ibid p 43.
182. Ibid p 43..

مانفك هابرماس يدعو إلى إعادة تحديد Redéfinition دور الفلسفة في عصر حداثة لم تعد في حاجة إلى تأسيس انطونولوجي بقدر ما هي فلسفة من علم مقنن باستمرار وحق وضعي صرف وأخلاق دنيوية (profanes) تقيم مبادئها بنفسها، وفن أصبح مستقلا ونقد للفن أسدل عليه طابع المؤسسة[183] وإن الثقافة الحديثة قد طورت ذاتيا أشكالا من المعقولية لا تتطلب أن يمدها جهاز خارجي عنها بالأسس التي تحتاجها.

يقرر هابرماس أن حلول هيدغر والمتمثلة في: البحث عن الوجود الأصلي في مقابل "الهم" اليومي الزائف، العود إلى الفكر قبل السقراطي، المراهنة على الفن واللامفهومي، التأكيد على الجانب الاستبدادي من الذاتية، التشخيص السلبي للحداثة، عدم التمييز بين ذهن حسابي، وعقل عملي[184]..، تبقى غامضة مترددة وكسولة عن كل بيان لما يمكن استكماله فعلا. وهكذا فإن أهمية هابرماس تكمن في بيان الطرق المسدودة التي أفضى إليها نقد هيدغر، فقد كل دور معياري للتفلسف[185]. يريد هابرماس أن يعيد الألق والنشاط للفلسفة التي أتت عليها سنون من القهر اللاهوتي والعبودية للمتعالي وأنهكتها تلك النظرات القيامية الرؤيوية من جهة والأداتية العلموية من جهة أخرى، وإعادة الإعتبار لها باعتبارها فاعلية تتصل بالمعيش والفضاء العام، فكيف ذلك؟

يعتبر كتاب الفضاء العمومي (الميدان العام) دراسة للدعاية والإعلام كوسيلة فعالة ومباشرة: من وسائل الهيمنة، هيمنة الدولة ومؤسساتها البيروقراطية بحيث تسهم في تكوين رأي عام يوازن أهدافها على الدوام، ولا تسمح لهذا الرأي بأن يتعارض مع برامجها وشروعها العام من السيطرة، وذلك عبر خلق محفزات مرنة لأجهزة هيمنتها على الوعي الجماعي، وتنشيط هذه الأجهزة بشكل يوازي الحركية التاريخية لتطور الوعي الجماعي، والمؤثرات التي تحيط بهذا الوعي، تمتلك القدرة على تحقيق خروج جزئي أو كلي له من الاستلاب العام.

يرصد هابرماس بشكل تاريخي متسلسل عملية الوعي الجماعي المتجسد كرأي عام من المجتمعات الأوروبية، ويقوم منذ الصفحات الأولى للكتابة بمسك الخيوط الأولية لرصد حركية اتساع هيمنة المؤسسات في الفضاء العمومي، متتبعا تطورها التدريجي ومتوغلا في

---

[183]. **فتحي المسكيني: هابرماس أمام هايدغر، مرجع سابق، ص 24.**

[184]. **Habermas, Le Discours. Op.cit p 160.**

[185]. **فتحي المسكيني: المرجع نفسه، ص 24.**

الكتلة التاريخية الضخمة لحركية الدعاية والإعلام وتطور أدوات السيطرة على الجمهور، وبعمق تحليلي حاد إلى درجة نشعر معها بوعينا محكوما بدرجة من الهيمنة والقيود الذهنية الفوقية التي تنتفي فيها كامل إرادتنا وحريتنا. ويجسد الكاتب سوداوية الواقع المعيش الذي تهيمن عليه وسائل الإعلام.

يؤكد هابرماس على ضرورة إعادة تنشيط فكرة إيمانويل كانط حول نظرية المعرفة، وذلك من خلال العودة إلى داخل تشكيلة فلسفية تتشابه مع المشروع الكانطي نفسه..عودة إلى النقد الخاص بأولويات الأشياء ومقدمات تواجدها العيني أو المجرد ضمن مجال الدراسة الفلسفية، أي شروط وجدها القبلية. هذه العودة قد تجسدت سابقا في مشروعات فلسفية كبيرة مثل فينومينولوجيا الروح "لهيغل"، ونقد ماركس للإيديولوجيات، وبهذا الخط النظري الفلسفي يمكن القول بأن كتاب الفضاء العمومي هو مزيج من فينومينولوجيا الروح لهيغل والنقد الإيديولوجي الماركسي .

فقد أبرز هابرماس اغتراب الوعي الجماعي داخل الدعاية وفق منهجية مستلهمة من فينومينولوجيا الروح لهيغل، بينما أبرز من ناحية أخرى التفكك البنيوي وتوفيقية الفكر السياسي المشروعي للسلطة حسب منهجية مستلهمة من النقد الماركسي للإيديولوجيات.

لقد بدأ هذا الاستلاب داخل النطاق الدعائي الإعلامي في المجتمع الأوروبي أثناء الصعود التدريجي والواضح للطبقة البرجوازية، ففي نهاية القرن السابع عشر في إنكلترا وفي نهاية القرن الثامن عشر في فرنسا، اكتسبت الطبقة البرجوازية وعيا بنفسها وشرعت بتكوين استقلال خاص بها تجاه السلطة وذلك عن طريق تأسيس قواعد ومبادئ لخلق حوار ومناقشات حرة عامة وعادلة. ثم أخذت هذه الطبقة بممارسة فعل المناقشة وفق طريقة نقدية وعندما. انبثق مبدأ الحوار المفتوح بدأ المجال البرجوازي العام بالتمركز أولا داخل الصالونات ثم في المقاهي والمنتديات الثقافية العامة حتى عبر عن نفسه وتموضع في النهاية داخل صبغة الدولة الدستورية تحت ظل وغطاء الحوارات الانتخابية والبرلمانية[186].

---

[186] Vérité humaine et liberté humaine .
علاء طاهر: نظرية هابرماس النقدية، مجلة الفكر العربي المعاصر، مجلة شهرية تصدر عن مركز الإنماء القومي، بيروت – باريس، العدد 1986/41 ، ص 51.

فالهيمنة التي تمارسها البرجوازية مقترنة بفعالية فكرية مرتبطة بدورها بمنطقة الإنتاج والتطور الصناعيين، وضرورة القوى المنتجة الصناعية والطابع التقني للإنتاج، هذا ما يؤدي إلى استلاب واغتراب شامل للوعي الجماهيري.

يرصد هابرماس حصيلة هذا القرار ونتائجه وعلاقة الوعي الجماعي بوسائل الإعلام الإيحائية منها والسلبية منذ نشوئها إلى يومنا الحاضر.

وأول ما قام به هابرماس هو تحديد مفهوم "عام" و"خاص" منذ الحقبتين الهيلينية والرومانية متتبعا تطورهما عبر مفردتي العصور اللاحقة من تطور الغربية، كما يتتبع مدلولات مفردة "عام" في مجالها اللغوي من العصر الإغريقي إلى الروماني ويرصد أصولها في اللغتين اليونانية والإيطالية ثم التطور الذي لحق مفهومها داخل اللغات: اللاتينية، الفرنسية، الألمانية، والإنجليزية. يخرج بعد ذلك بنتيجة مشتركة تنطلق من التركيب اللغوي لتتجسد في النهاية داخل التطبيق العملي لنماذج "الميدان العام" (الفضاء العمومي) في الوحدات الاجتماعية الصغيرة مثل العائلة والكبيرة مثل المجتمع بكل مؤسساته.

يؤكد هابرماس أن "الفضاء العمومي قد تولد في البداية من التنظيم العفوي للعائلة البرجوازية ثم امتد بعد ذلك إلى الواقع الخارجي مجسدا بالتطبيقات الاجتماعية التي نرى من خلالها بأن الوظيفة السياسية للمجال العمومي تتوخى تأمين سيطرة المجتمع المدني عبر قوة التجربة المخصصة لصميمية الحياة الشخصية. إن هذا الميدان الجديد يشكل جبرية قاسية إزاء السلطة الملكية القائمة"[187].

من هنا انطلق هوبز لطرح فكرته عن السلطة المطلقة التي كانت المحور الأساس لنظريته في الدولة.

ولقد ركز هابرماس على انبثاق نمط من المعارضة، داخل اللغة وذلك عند صدور بعض النصوص الأدبية الجديدة التي تحمل بذرة مخالفة ما هو قائم أو سائد مثل كتاب "جولفر" لسويفت (Swift) و"لادونياد" Ladoniade لـــبوب (Pope) و"القصص الحيواني" (Les fables) لغاي (Gay)..فظهور هذه الكتب عام 1726 يشكل بداية لتبلور نزعة نقدية داخل الثقافة الأوروبية، لقد ظهرت بذلك وتتابعت أولى خيوط وعي نقدي مواكب للتطور

[187]. علاء طاهر: مرجع سابق، ص 51.

الحاصل في النظام الرأسمالي وأنشطته الاقتصادية المتعددة كالعمل التجاري والصناعة والفعالية المصرفية وغيرها[188].

وفي مقابل هذه الحركية النقدية الناشئة قامت صحافة رأسمالية تدافع عن النظام القائم وعن المصالح الرسمية آنذاك، الأمر الذي يشكل بداية بروز هيمنة السلطة السياسية ومؤسساتها القائمة المرتبطة معها مصلحيا وإيديولوجيا.

ومنذ بداية القرن الثامن عشر بدأت لغة الصحافة والإعلام في إنكلترا تسير تحديد نمط من الحس العام والمشترك وذلك عبر تبني نوع من التعبير القريب من الطبقات الشعبية وحسها الجماعي، ومن هنا ظهرت تعبيرات مثل: "عقلية الناس" و"الصوت المشترك" و"الروح العامة" و"المطالب الجماعية للشعب The General Cry of People".

وخلاصة الأمر أن الدعاية مبدأ للسيطرة تخلقه وتنشئة البرجوازية للأفراد المتعلمين والقادرين على التفكير، بهدف أن يكون هذا المبدأ وسيلة للتحكم في وعي الناس وسلوكهم.

يرصد هابرماس جميع التشعبات التي نجمت عن طغيان الاتجاه المؤسساتي كنموذج للدولة المعاصرة وتناقضاته الداخلية المتولدة عن سعي هذا الاتجاه نحو الشمول وتحقيق الاستلاب الكلي للديمقراطية والثقافة والقانون والقضاء، فاستقلالية القضاء مرهونة بقيام رأي عام مهيأ لأن يستخدم حقه في النقد المتولد عن هيمنة الدعاية في المجتمع الغربي وطبيعة البنية التي تقوم عليها استمرارية هذه الهيمنة.

بتخلي الفلسفة المعاصرة عن إدعاءات الشمولية وامتلاك الحقيقة المطلقة الشمولية مع هيغل والتأسيسية مع كانط وتفسير العالم مع ماركس والقدرية مع هيدغر، أصحبت واعية بذاتها وتعرف حجمها والمهام المنوطة بها في الفضاء العمومي الحديث كما أصبحت واعية بإمكانية وقوعها في الخطأ "فالفلسفة غالبا ما تكتفي بفتح الطريق للنظريات الامبريقية المطالبة بطرح قضايا كونية طموحة، إنما لم تتوقف على الاشتغال بقضايا الحقيقة مثلها مثل العلم لكن الذي يميزها عن العلم هو أنها تحافظ على علاقة داخلية مع الحق والأخلاق والفن وتدرس المسائل المعيارية والتقويمية من وجهة نظر خاصة بها، فبدخولها أيضا في منطقة

[188]. علاء طاهر: المرجع نفسه، ص 52.

قضايا العدالة واحترامها للمعنى الخاص بالمقاييس الأخلاقية والتجارب الجمالية تحتفظ بهذه القدرة الوحيدة للانتقال من خطاب لآخر وتجري ترجمات من لغة لأخرى[189].

يمكن تناول علاقة الفلسفة بالفضاء العمومي من خلال علاقة الفيلسوف بهذا الفضاء ودوره في العصر الراهن، خاصة في ظل مجتمع يهيمن فيه دور الخبير أكثر من دور الفيلسوف. فالفيلسوف حسب هابرماس يلعب دورا مهما في الفضاء العمومي في المجتمعات الحديثة وهو دور يتجاوز دوره كخبير وهذا ما يميزه أيضا عن العالم[190]، فالفيلسوف حينما يلعب دوره كمشارك في الفضاء العمومي، هذا الفضاء الذي عبره تفكر المجتمعات الحديثة في هويتها الجماعية يكون له تأثير أكثر من كونه خبيرا أو كمانح للمعنى. إن هذا الدور الذي يمنحه هابرماس للفيلسوف يأتي من فهمه لمهمة الفلسفة في بعدها السياسي، فهابرماس من الفلاسفة الذي أولوا أهمية كبرى للسياسة في العصر الراهن، وذلك ليكشف التأثير الذي يمكن أن تحدثه في الفضاء العمومي[191]، لأنه يشكل صدى للمشاكل المطروحة في المجتمع، هذه المشاكل التي لا يمكن إدراكها من وجهة نظر وظيفية مغلقة فــ"النسيج المنتشر في الفضاء العمومي والمجسد في المجتمع كدين، هذا المكان الذي يمكن للمجتمعات الحديثة المعقدة أن تطور فيه وعيها بذاتها ففي الفضاء العمومي يلعب الفلاسفة أدورا أكثر من باقي الفاعلين، فهذه الفئة من المفكرين الفاعلين يفعلون في المجتمع دون طلب من الآخرين[192]، وهذا ما يميز الفيلسوف عن الخبير الذي يكون دائما رهن إشارة الآخرين لتقديم خدماته ومعارفه قصد إيجاد حلول لمشاكل معينة. من خلال العرض السابق الموجز لتاريخ الفلسفة ولثنائية النظرية والممارسة،والذي تأرجحت فيه مهمة الفلسفة بين الخلاص وخدمة اللاهوت والممارسة الثورية، خلص هابرماس إلى أن طريقة معرفة كيف تصبح الفلسفة عملية طرحت بشكل سيء. ولهذا تبعا لرؤيته الخاصة للتحولات التي عرفتها الفلسفة، وللتطورات التي عرفها المجتمع الحديث المعقد، يرى هابرماس أن «الفلسفة اليوم مطالبة بأن تكون في خدمة الفضاء العمومي»[193]. ترى كيف سيتم لها ذلك؟

---

[189] . Habermas : Vérité et Justification, op.cit p 255.
190 . Habermas .J. « Vérité et justification « Tr. Rainer Rochlitz. Gallimard 2001 , p : 248-249,
191 . Ibid. p : 248

192. Ibid. p : 250-251
193 . Ibid. p : 252

فالخبير في ظل مجتمع تهيمن فيه الأنساق الوظيفية مطالب بتقديم أجوبة تكون عبارة عن معرفة مهنية متخصصة، معرفة قابلة للتطبيق، إما أن يكون مصدرها العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية. هذه المهمة التي يقوم بها الخبير لا يمكن أن تقوم بها المعرفة الفلسفية أو التاريخية أو الهرمنوطيقية، فمساهمتها في هذا المجال ضعيفة. فمهمة الفيلسوف تكمن في كونه مستشارا في قضايا المنهج ونقد العلوم وحدود العلم[*]، وبالخصوص في القضايا المعيارية التي لها علاقة بالبيئة[194] والتكنولوجيا الجينية[***]، أو بصفة عامة القضايا المتعلقة بالمخاطر التي يطرحها استعمال التكنولوجيا الجديدة، وفي بعض الأحيان يتعلق الأمر بالتأمل في السياسة الأخلاقية حول الهوية الجماعية.

على خلاف الخبير، لكي يحافظ الفيلسوف على دوره فهو مطالب بمعارضة كل استعمال أداتي instrumentalisation لمعارفه، أي يجب أن يظل واعيا بحدود خبرته لأن الفلسفة لها خصوصيات مقابل العلم[195].

إن الفيلسوف يتميز عن الخبير بكونه يتصف بنوع من الاستقلالية، هذه الاستقلالية تجعل مهمته تتمثل في الدفاع عن القيم الأخلاقية، في سياق توشك فيه هذه القيم على أن تنسى. من هنا أصبح تدخل الفيلسوف في القضاء العمومي مسألة ملحة أكثر من أي وقت مضى وهابرماس يمثل نموذج الفيلسوف المتعدد الوظائف " بوصفي فيلسوفا أعمل في حقل العلوم الاجتماعية وبوصفي أستاذا أدرس، وبصرف النظر عن ذلك، فأنا مثقف، وفضلا عن

---

[*]. لقد أصبح العلم في العقد الأخير من القرن 20 موضوع دراسات فلسفية عديدة، ليس من زاوية إستراتيجية وإنما من زاوية أخلاقية أو ما أصطلح عليه بأخلاقيات العلم [البيواتيقا كنموذج]. وتعد الدراسة التي قام بها رزنيك ديفيد " The Elhics of Science " دراسة مهمة في هذا المجال. فعلى خلاف الدراسات الابستمولوجية التي تتناول العلم من الداخل [منهجه... منطقه]، فإن هذه الدراسات تتناول العلم من الخارج أي تتناوله كظاهرة إنسانية لها متطلبات وشروط واحتياجات الظاهرة الإنسانية وعلى رأسها النسق القيمي والمنظومة الخلقية. وللمزيد من الإطلاع يمكن العودة إلى هذا الكتاب، وخاصة الفصول الأربعة الأولى. ["أخلاقيات العلم" ديفي رزنيك ترجمة عبد النورع المنعم، عالم المعرفة 2005.]

[194]. " أخلاقيات العلم " نفس المرجع، ص : 42. يمكن العودة أيضا إلى جزئي : " الفلسفة البيئية " عالم المعرفة. إعداد مايكل زيمرمن، ترجمة معين شفيق 2006.

[***]. قبل سنة 1998 لم يكن لهابرماس أي اهتمام بالأخلاق التطبيقية، لكن فيما بعد بدأت مشاكل البيواتيقا تستحوذ على الجمهور والتي أثارها تقدم طب الولادة منذ مدة طويلة، كما أن البحث حول الخلايا الأصلية المقتطعة من أجنة بشرية أو من أنسجة جنين مجهض لم يعرف انطلاقته إلا منذ 1998م. إضافة إلى الأبحاث المتطورة حول الجينوم التي غذت الأمل في رؤية العلاجات الجينية تتطور على نطاق واسع وأثارت أيضا الاهتمام الاقتصادي باستغلال هذه التكنولوجيات. في ضوء هذه التطورات تأتي التأملات الفلسفية لهابرماس حول مستقبل الطبيعة الإنسانية. هذه التأملات التي صاغها على شكل تساؤلات ستكون موضوع كتاب " مستقبل الطبيعة الإنسانية، نحو تحسين النسل في المجتمع الليبرالي ". من أهم الأسئلة المثارة للنقاش : ما مستقبل الطبيعة الإنسانية في ظل التطور الذي تعرفه البيوتكنولوجيا خاصة في المجتمعات الليبرالية التي يتمتع فيها الفرد بالحرية والمساواة في فعل ما يريد ؟ هل يسمح لنا في ظل هذا التطور اختيار جنس الطفل الذي نريد، وبرمجة الخصائص المميزة التي نريد على مستوى الشعر، اللون، القوة الفيزيائية، الذكاء، الذاكرة ؟

[195]. Habermas J. Vérité et justification Op.cit. p : 257

ذلك أيضا أتدخل عمليا، لكنه لا أحد في ألمانيا يقبل هذا المبدأ الذي يميز بين الأنشطة وخبراتها المتبادلة كما لو أن على الفلسفة أن تكون مجرد تبرير سياسة ما، وعلى الالتزام أن يكون توضيحا لفلسفة ما"[196].

إن الفلسفة بحكم تعدديتها اللغوية وعلاقتها مع العديد من المباحث المعرفية بإمكانها أن تطور العديد من تأويلاتها، وأن تساهم في فهم العلاقات الاجتماعية والسياسية. كما أن بإمكانها أن تساهم في تقريب وجهات النظر بين مختلف الثقافات بخصوص القضايا الأساسية المطروحة للنقاش حاليا، كالديمقراطية، وحقوق الإنسان والعنف الذي ارتفعت حدته في السنين الأخيرة.

بخصوص مسألة الديمقراطية يرى هابرماس أنها في حاجة في وقتنا الراهن إلى الفلسفة كفاعل مؤثر في الفضاء العمومي، وكذلك لحسها النقدي، بالرغم من أن الفلسفة والديمقراطية ليس لها نفس الأصل التاريخي. فكل واحد منهما تابع للآخر بنيويا. فالتأثير العمومي للفكر الفلسفي يتطلب الحماية المؤسساتية لحرية التعبير والتواصل، على عكس هذا، فالنقاش الديمقراطي- المهد** دوما – متوقف على يقظة وتدخل هذا الحارس العمومي للعقلانية والمسمى بالفلسفة "[197].

وفي إطار تأسيس فضاء عمومي ديمقراطي تعمه أخلاقيات الحوار أو المناقشة، يستدعي ذلك الدفاع عن حقوق الإنسان حتى يتمكن من التعبير عن آرائه ويساهم بشكل فعال في تعزيز الحريات العامة والفردية للإنسان في إطار الاحترام المتبادل للخصوصيات الثقافية، ولهذا يعتبر موضوع حقوق الإنسان بالنسبة لهابرماس من المواضيع التي تحتاج حاليا لتدخل فلسفي. وهابرماس نفسه حاول استثمار الأسس الفلسفية لنظريته التواصلية لمقاربة هذا الموضوع، مقترحا في هذا السياق " التفكير في الوضعية الهرمنوطيقية التي تسمح بالدخول في نقـــاش حول موضوع حقوق الإنسان المثار بين مشاركين ينتمون إلى

---

[196]. " مسارات فلسفية " حوارات مع لفيف من الباحثين ،ترجمة محمد ميلاد، دار الحوار، سوريا، 2004، ص 152.

**. يبدو لي أن هابرماس منذ أواخر التسعينات كثف أبحاثه حول الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والسلام، المواطنة ...إلخ، هذا الاهتمام يعكس تخوفه من انهيار مكتسبات الديمقراطية التي حققها المجتمع الألماني. وبالتالي فدعواته المتكررة لتعزيز دولة الحق والقانون عن طريق تعزيز آليات الديمقراطية، تنم عن هذا التخوف من العودة إلى وضع غير ديمقراطي. إنها عقدة النازية التي لا زال يعاني منها المثقف الألماني. ويؤكد هذه الفكرة كل من راينر روشلتز وكريستيان بوشيندوم.

[197] .Habermas. J, Vérité et Justification, Op.cit, p 252.

ثقـــافات مختلفة، وذلك بهدف الوصول إلى تفاهـــم بين مختلف المشاركين عن طريق تبادل الأفكار والاعتـــراف المتبادل فيما بينهم، بالرغـــم من اختلاف خلفياتهم الثقافية "[198].

أما بخصوص مسألة العنف، خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر وجد هابرماس نفسه مضطرا للدفاع عن أطروحته التواصلية نظرا للانتقادات التي تعرض لها " مفهوم العقل التواصلي " حيث شوشت على هذا المفهوم المركزي في نظريته. هذا التشويش دفعه إلى استغلال فرصة الحوار الذي أجرته معه الباحثة الأمريكية جيوفانا بورادوري Giovanna Borradori حول " الفلسفة في زمن الرعب "، للرد على الانتقادات التي وجهت لنظريته، معتبرا أن نظريته بإمكانهـــا أن تساهم اليوم في تجـــاوز حالة العنف التي أصبحت هي الحالة الســـائدة في العالم بما في ذلك في أوربا " فهـــذه الأخيرة التي كانت تعيش حالة من الاستقـــرار والسلم أصبحت مهددة بدورهـــا بظاهرة العنف، وذلك لكون العنف أصبح يشكل بنية لهذه المجتمعـــات، هذه البنية التي هي نتاج للتهميش والتفقير ".

وبحكم أن العلاقات الاجتماعية أصبحت رهينة للعنف، وللفعل الإستراتيجي والتحكم، فإن هابرماس يرى أن هناك عاملين أساسيين يجب أخذهما بعني الاعتبار : ممارسة حياتنا اليومية جنبا إلى جنب تستند على أساس صلب لقناعات مشتركة وحقائق ثقافية بديهية بذاتها وأمال متبادلة. فتنظيم الفعل يتأسس من خلال ألعاب اللغة العادية، ودعاوي الصلاحية المرفوعة بشكل متبادل أو على الأقل تلك المعترف بها بشكل ضمني في الفضاء العمومي من جهة، ومن جهة أخرى، وبسبب هذا، فالصراعات تنشأ من خلال تشوه في التواصل، وسوء التفاهم، والفهم وأخيرا من خلال الكذب وخيبة الأمل.

انطلاقا من هذه العـــوامل المتداخلة فيما بينهـــا يعد العنف بالنسبة لهـــابرماس "حلقة لتواصل مشوه " يـــؤدي من خلال عدم الثقة المتبـــادلة غير المراقبة إلى تعطيل التواصل ".

إن هذا التعطيل للتواصل هو الذي تسعى النظرية التواصلية إلى تجاوزه وذلك من خلال معالجة العوائق التي تعيقه. فإذا كان للفلسفة من دور في هذا المستوى هو محاولة تجاوزها نظرا لما تتوفر عليه الفلسفة من تعددية لغوية ومن قدرة على التأويل، وذلك عن

---

[198]. **Habermas. J, Vérité et Justification, p 259.**

طريق " التبادل الثقافي والترجمة والبحث عن لغة مشتركة ". ولتحقيق هذا التواصل المنشود بين الثقافات والشعوب رد هابرماس بنقد واضح على دعاة... " صراع الحضارات " الذين ينطلقون في أطروحة صامويل هانتغتون، حيث دعا هابرماس الغرب إلى تغيير سياسته تجاه الثقافات الأخرى معتبرا أن ما يسمى " بصراع الحضارات " " هو ما يشكل حجابا يخفي المصالح المادية الحيوية للغرب ".

ولتجاوز حالة العنف والصراع يؤكد هابرماس على أهمية " التواصل الأفقي " بالمعنى الهرمنوطيقي كما وظفه " **فون هومبلدت** " في فلسفته. وفي هذا الحوار الذي أجرى مع هابرماس بعد أحداث 11 سبتمبر، يعلن هابرماس عن تأسفه عن تراجع هذه المقاربة الهومبلدية للتواصل نظرا للعوائق التي لازالت تحول دون تحقيق ذلك، من ثمة فهدف الفلسفة عنده هو إعادة بناء هذه الشروط لتحقيق تواصل فعلي* في المجتمع بين الأفراد وأيضا بين الثقافات. ويعد تركيز الفلسفة على العالم المعيش اليومي ومكوناته الثقافية واشتغالها على التأويل مدخلا من شأنه أن يردم الهوة الفاصلة بين هيرمنوطيقا ما قبل – الفهم للجانبين معا. لأن العالم المعيشي هو الأفق لممارسة أشكال متعددة من الاتفاقات بين الذوات، هذه الاتفاقات من شأنها أن تساهم في تقليص دائرة العنف كتواصل مشوه.

استنادا إلى المعطيات السالفة الذكر، يبدو أن هابرماس ينطلق في نظريته التواصلية من تصور خاص للفلسفة يتماشى مع الأطروحة التي يدافع عنها. مما يعكس أن ماهية الفلسفة في الوقت الراهن بالنسبة لهابرماس، لا يمكن إلا أن تكون في خدمة البراديغم التواصلي الذي يريد هابرماس تأسيسه في ظل فكر فلسفي ما بعد ميتافيزيقي يتصف بمميزات وخصائص جعلته يقيم قطيعة وثورة – على البراديغم الفلسفي الميتافيزيقي، الذي تمثله الفلسفة الهيجلية وباقي الفلسفات الكبرى بصفة عامة، وفلسفة الوعي بأشكالها الذاتية والجماعية، أقصد الليبرالية والإشتراكية . إننا أمام مهمة جديدة للفلسفة تسعى إلى تجاوز الفلسفة الذاتية، واكتشاف البيذاتية Intersubjectivite نقدا وتحليلا، وتقدم نفسها كبديل فلسفي جديد. هذا البديل الفلسفي الذي يركز على العلاقة الحوارية يهدف إلى البحث عن شروط

* . **في جواب على سؤال متعلق باهتماماته الأخيرة حول البيوأخلاقيات [دراسة المشاكل الناجمة عن البحث البيولوجي والطبيعي والجيني] وعلاقة بذلك بالديمقراطية، أشار هابرماس إلى مهمتين للفيلسوف، الأولى أن يوظف معرفته المتخصصة في إطار لجن، والثانية هو أن يحتل باعتباره مثقفا مكانته في الفضاء العمومي كلما تعلق الأمر بقضايا سياسية، [من حوار أجراه رانير روشلتس مع هابرماس بجريدة لوموند– ترجمة أحمد رباص، جريدة المنعطف 2003].**

الحوار والتواصل مستفيدا من اجتهادات التداوليات الكلية لكارل أتوآبل و" المنعطف اللغوي " الذي منح الفكر الفلسفي المعاصر الوسائل الضرورية لاكتشاف العقل المجسد في الفعل التواصلي.

وباعتماد هذا البديل الفلسفي على العلاقة البيذاتية انفتح عن النظرية الحجاجية التي تقدم الوسائل الضرورية لإقامة علاقة تواصلية مؤسسة على أفضل حجة لا على الإكراه والضغط.

زيادة على هذا فالفلسفة بحكم استفادتها من هذا التحول أصبحت مهمتها عند هابرماس تكمن في تحرير الفضاء العمومي من كل العوائق الإيديولوجية والأوهام سواء الوضعية، أو العلموية، أو الماركسية، وذلك عن طريق انفتاحها على باقي المعارف الأخرى وكفها عن الادعاء الكلاسيكي بقدرتها على إدراك الحقيقة لوحدها، لأن الحقيقة أصبحت مسألة جماعية تساهم فيها عدة أطراف مشاركة.

إن الهدف الأكبر الذي تسعى الفلسفة الهابرماسية إلى تحقيقه، هو صياغة نظرية للحداثة ولعقلانية جديدة : عقلانية تواصلية إجرائية لا عقلانية جوهرية مطلقة، عقلانية عملية مرتبطة بسياق اجتماعي ومموضعة في التاريخ، لا عقلانية تجريدية نظرية.فهابرماس في الوقت الذي يتفلسف في ضوء منطلقات التواصل، يريد أن يواصل مشروع مدرسة فرانكفورت اعتمادا على وسائل أخرى من أهمها مكتسبات المنعطف اللغوي، في أفق بناء نظرية نقدية للمجتمع تسعى إلى عقلنة الفعل والسلوك والمعرفة والكلام، فالفلسفة، وإلى جانب المعارف الأخرى، تشكل معها شريكا في التحليل النقدي للمجتمع، لأن النظرية التواصلية في نهاية المطاف هي نظرية في المجتمع. دون أن ننسى أن أهم طموح لفلسفة هابرماس هو محاولته دراسة المجتمع في ضوء نظرية التواصل.

2. أخلاقيات النقاش:

يبدو أن هابرماس بقدر ما اهتم بإشكالية الحقيقة داخل تصوره العام لمسألة اللغة والتواصل بقدر ما حاول الإقتراب من ضوابط الحوار وأخلاقياته، وذلك في إطار اهتمامه الأساسي بمسألة الكلام واللغة العادية والمناقشة وادعاءات الصلاحية. ومن أجل الكشف عن مستويات امتلاك الحقيقة – من خلال النقاش وأخلاقياته، وتقييم مختلف النظريات التي حاولت معالجتها وتحديدها– انطلق هابرماس من أعمال بعض اللسانيين وفلاسفة اللغة ولا سيما أوستين وسورل وشومسكي[199] وقد حاول طرح مجموعة من الأسئلة التي عمل على اقتراح بعض عناصر الجواب عنها من خلال مناقشة النظريات التي قاربت مسألة الحقيقة ولذالك انطلق هابرماس من سؤال يمكن صياغته كالتالي: ماذا يمكن أن نقول حين نتساءل: هل هذا صادق أم كاذب؟ وللإجابة عن هذا السؤال تأتي اللغة لاقتراح مجموعة كبيرة من الصيغ سواء ما تعلق منها بالقضايا Propositions بالتلفظات énonciations أو بالملفوظات

---

[199]. حسان الباهي، الحوار والمنهجية التفكير النقدي، إفريقيا شرق، طبعة 2004، ص:31.

énonces... ذالك أن قضايا مختلفة لنفس اللغة يمكن أن تترجم نفس حالات الأشياء، كما أن هذه القضايا مصوغة في سياقات مختلفة للخطاب يمكنها كذالك أن تترجم حالات مختلفة من الأشياء. لذالك يلاحظ هابرماس أنه أمام هذه المسالة اقترح "أوستين" "أن الموضوع الذي يمكن أن نسميه بشكل مشروع، بأنه حقيقي أو كاذب لا يتعلق بالقضايا، ولكن بنوع معين من التلفظات وهي الإثباتات assertions لأن القضية تكون فقط مكونة من كلمات بينما باستعمال هذه الكلمات والقضايا التي تكونها ندعم إثباتا معين، ويعتبر هابرماس أنه بإثبات شيء ما، فإنني أعلن عن إدعاء يؤكد أن ما أثبته حقيقي، وأن ما أدعيه يمكن أن يكون خطأ أو صوابا لأن الإثباتات لا تكون صادقة أو كاذبة وإنما مبررة أو غير مبررة.

فاختلاف النقاش يتحدد من الوجهة الإجرائية والوظيفية أساسا، فالنقاش يقتضي وجود طرفين أحدهما عارض وآخر معروض عليه، هذا النقد في التفاعلات الحوارية يعكس تعداد في الذوات المتخاطبة بشكل يسمح بتصنيف المتخاطبين إلى فئات نذكر منها ثلاثة: فالسائل قد يكون أ. متعلما: هدفه اكتساب المعرفة والزيادة في التعلم ولهذا يرجى من الطرف الثاني أن يكون بمثابة الطبيب الذي يتحرى شفاء السقم، فيبين المعالجة على ما يقتضيه المرض لا على ما يحكيه المريض.

ب. مستشكلا: يرغب في أن نوضح له ما استشكل عليه. ج- متشككا: يقوم شكه على النتيجة أو طريقة التدليل أو هما معا. وقد يكون مختصا معاندا مخالفة أو غلطا.

للإحاطة بمختلف أنواع الأسئلة التي يمكن أن تطرح، على المجيب أن يحقق جملة من الشروط التي تمكنه من تنويع الأجوبة بتعدد الأسئلة وتنوع السائل. إذا مناقشة المستشير لا تجب أن تماثل في مفاهيمها ومسائلها مناقشة المتشكل. كما أن المناقش المعاند المختص لا ينظر إليه بنفس الكيفية والطريقة التي بها ينظر المعاند الغير المختص فالمفترض أن تراعي المناقشة عدة مقتضيات من بينها مقاصد المناقشين، بحيث أن: أخلاقيات النقاش تقتضي أن يكون الجواب مدللا ومفهوما لا غلط فيه ولا تقليد.

- وأن يكون متطلبا رفع الإشكال وإزالة موضع العناد.

- يتبين مكمن الغلط في حين أن الجواب على الطالب المختص المعاند بالمغالطة تكون بالتمويه والتغليط حيث يقصد من وراء هذا اختبار مدى تمكن المعاند من صناعته. لهذا تسمى هذه المعاندة "امتحانا" ويطلق على صاحبه "السائل الممتحن". أما متى لم يتمكن

المجيب والذي تم إقناعه – من الكشف عن مكمن التمويه والتغليط دل ذالك على عدم كفايته ولهذا يستحسن سد كل الثغرات التي يمكن أن ترد في الجواب والتي يمكن أن يستغلها الخصم لإتمام إضافات.

* الفروع القائمة بين أنواع النقاش وهي كما أقامها أرسطو بين أنواع المخاطبات:

أ. مخاطبة برهانية: يدور الكلام بين معلم ومتعلم، وعليه وجب على التعلم أن يلقن الحقيقة وعلى التلميذ تقليدها.

ب. مخاطبة جدلية: منها يعرض كل من المتناقشين للآراء الذائعة والمشهورة ويحاولان الكشف عن التناقضات التي تتضمنها لحلها معا. وتتألف من المسلمات أو المشهورات

ج. مخاطبة خطابية: تقوم بين من يدافع عن رأيه مستندا إلى علم يثبته ويسعى إلى أن يقتنع غيره به. إنها تلك التي تتكون من المقدمات المظنونة أو المقبولة.

د. مخاطبة سوفسطائية ومغالطة: يوهم صاحبها محاوره بأنه انطلق من مقدمات يقينية أو مشهورة ليضلله ويغلطه أو يضخمه ويلزمه شنعة، ففيها يستنبطن الشخص أمورا معايرة لما يظهره.

يستفاد من هذا أن لكل تبادل حواري أركانا تتمثل في المتكلم والمخاطب وموضوع التخاطب، وكلها تتفاعل فيما بينها لتحقيق غرض أو أغراض معينة ظاهرة أو باطنة، فتحقيق مقاصد النقاش يتطلب تدبر المنظور فيه في إطار تعاوني وضمن شروط نظرية وعملية لا يمكن بدونها أن يمر الحوار في جو سليم ويحقق النتائج المتوخاة منه وبما أن المراد الأسمى والأمثل من كل نقاش هو جلب المصالح (العامة) ودرء المفاسد (عن الكل) فإن تحقيق ذالك يتطلب رسم طريقة تحرك النظر وتتدبره بسبل عقلانية. كما أن نجاح كل تفاعل حواري يتطلب الإلتزام بقواعد مضبوطة ومحددة. وتحدد هذه القواعد بجعل منها ما هو نظري وما هو عملي وما هو عام وما هو خاص ونجمل هذه المقومات في:

أ. المناقشة في المجالس: قد تتخذ هذه المجالس حكما بين المتنازعين بأن يشكل مجالا للشهادة لأحد المتناظرين والشهادة على الطرف الآخر، لهذا ينصح بعضهم باجتناب مناظرة تتم في مجلس يعوق جريانها الطبيعي ولا يسوى بين المتنازعين. كما ينصح باجتناب مجالس يسودها الخوف والترهيب والإكراه والوعيد ولا تستهدف بتمييز الحق عن الباطل، ضمن

أخلاقيات النقاش تفادي التعنت والتباهي والهذر، وأن يكون هدفه الغلبة فقط. أما إن لم تعلمه حتى فاتحته بالكلام فعليك إما بالإمساك عن مناظرته، أو الإحتراز منه واستخدام الأساليب التي تليق بأمثاله، فإن عرفته مغالطا أو رأيته يكرر القول الواحد أو استهزأ بكلامك فلا تتركه يميد في فعلته. وإن أصر على موقفه فبإمكانك أن تصده عن ذالك وتقاطعه. بمقتضى هذا ذهب بعض الدارسين إلى استرذال جريان المناظرة في مجالس خاصة أو عامة (أو في بعضها على الأقل) لكونها تساعد على ألا يجري المتناظران منظارتهما على عرف واحد. وفي هذا تكمن أهمية البدء بتحديد من تجلس إليه، إذا لناس فئات وطبائع.

ب. وجوب أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما في جلب مصلحة أو درء مفسدة ولهذا قيل ما لا داعي له هذيان وما لا سبب له هجر، ومن سامح نفسه في الكلام إذاعن ولم يراع صحة دواعيه وإصابة معاينة كان قولا مرذولا ولهذا يطلب أن يكون أصحاب الحوار (المناقشة) على علم بموضوع المناظرة والقصد منها. كما أن تمكين الخطاب من مجموع مقوماته يقتضي بناؤه بشكل يجعله يستجيب للعنصرين الأساسين التاليين:

1. أن يتوجه المتكلم إلى المخاطب بكلام، القصد منه إبلاغ الخطاب بطريقة معينة وإعلام المخاطب بأن الخطاب تم بتلك الطريقة.

2. تمكين المخاطب من التعرف على المقصود المتكلم وإن كان قاصدا إلى ذلك ولم يصدر عنه سهوا أو غلطا أو تغليطا. بحيث يتفق ما تم تبليغه مع كون هذا التبليغ تم بطريقة محددة تحصل معها السكينة لدى المتلقي.

1. أن يلزم الحضور بما فيه المتناقشين الخشوع والتواضع وأن يحفظ كل منهما قدر الآخر بتجنب استصغاره والاستهزاء به والتشنيع عليه والإساءة إليه قولا أو فعلا كما أن عليه تجنب الكذب والشبهة والرفث والعناد ولا يناظر النظير مناظرة المسترشد، بل يناظر كلا على حقه. ولا تجعل همك هو النيل من مخاطبك والظفر به وإلزامه في النقاش.

فهابرماس يرى أنه لا يمكن الحديث عن التواصل إلا بافتراض وجود خطاب، وعالم معيش، فالتواصل خطاب سوسيولوجي وليس فلسفيا ولا ميتافيزيقيا، فهابرماس يفكر انطلاقا من الواقع وهو ما سماه عالم المعيش. كيف السبيل في عالم يعيش المتناقضات لقضاء تستحضر فيه النقاشات؟ فالتداول لابد أن يسند إلى لغة تداولية. فهابرماس في هذا المجال استعان بكتابات أوستين (أفعال الكلام) واستعان نظريات الحجاج. ولكنه لم يقتفى بدربهما

وإنما حاول أن يسلك طريقا خاصا في –التعامل مع اللغة. عندما نتكلم عن النقاش الحجاجي فنحن إذن أمام نقاش صحيح. فهو النقاش الذي يكون كل واحد يريد أن يفرض وجهة نظره وبالتالي هو نقاش منظم يريد به صاحبه أن يقنع بواسطة البراهين – بصلاحية دعواه، بمعنى أنه نقاش جدي، وهو النقاش الذي يريد به صاحبه– في موضوع ما، في قضية ما– إثبات حجته.

النقاش الحجاجي الجاد هو نقاش منظم، أي أنه يروم موضوعا ما، أي إثبات صلاحية دعواه وإثبات عدالة قضية ما، بمعنى أن صاحبه لا يحاجج بسوء نية وإنما من أجل إثبات قضية ما.

لمن الحجة الأقوى بين الناس وهم يتداولون؟ هذا النوع من الحجاج الجاد يتميز بثلاث مسائل:

أ. ينتظم ضمن متوالية حوارية: بمعنى أن هذا الحجاج في وضع يختلف عن ما هو سردي، ولا يدخل السرد في مجال النقاش.

ب. بعد سياسي: لا يمكن أن نتصور نقاشا سياسيا من دون استخدام العقل، واستخدام العقل يقتضي وجود حرية التفكير وحرية التعبير ويفترض أن يكون النقاش والحجاج ضمن فضاء، لا يمكن أن يكون هناك نقاش وحوار إلا متؤسس على العقل وعلى قضية الديموقراطية.

ج. بعد أخلاقي: بمعنى أنه يفترض أن هناك نمط من السلوك والاحترام الذي يسمح تبادل الأفكار فيما بين المتناقشين بمعنى أن النقاش يقتضي حضور سلوك أخلاقي مستوحى من العقل العملي (القانون) من هذه الزاوية يمكن أن تقول إن هذه الأبعاد الثلاثة هي ما يميز نقاشا حججيا عن غيره من النقاشات الأخرى. فالنقاش الحججي هو الذي يقبل العقل حكما. يجب أن تخضع حججنا ودعاوينا للنقاش لأنه شرط للتراضي ولاجتناب أنواع التهكم والعنف اللغوي أو اللفظي في مستوياته المادية أو الرمزية. فأخلاقيات النقاش لا تلزمك بفعل شيء أو تركه، فهذا النقاش له طابع إجرائي، فمشروعية هذا النقاش لا تقوم إلا من خلال اختيار وامتحان دعاوي ومقدمات الأطراف، وهذه الشروط هي:

أ. شروط مادية: أن يظهر المتناقشان بمظهر مقبول. فمن الناس من ينظر إلى من قال لا إلى ما قيل فخلقته وهيأته تلعبان دورا أساسيا في عملية النقاش ذالك أن المستمعين يتأثرون بكل الظروف الخاصة بالنص وكيفية أدائه وإخراجه بما فيه من استغلال للصوت وإحكام للألفاظ

والإشارات، وغيرها من المسائل الخاصة بهيأة ومظهر الشخص. فهذه الشروط تلعب دورا أساسيا في استمالة المستمع وجلب عواطفه حتى يتمكن القول فيه، وما دام التجاوب النفسي بين المتكلم والسامع يساعد على تحقيق الهدف فلابد للناظر من خصال نفسية تشد أزره وتقوي عزمه ليمضي في كلامه وفق ما يقتضيه المقام.

ب. الصدق في القول والإخلاص في العمل: ما أثبته بقولك عليك تزكيته بعملك، ولا تحاجج إلا بمالك به علم وما تعتقد بصدقه، وعليك بالسعي إلى الحق وترك الباطل ولا تتبع الهوى فتلبس الحق صورة الباطل ولا تبتغي بنظرك التكسب والمباهات، وامتنع عن الرياء والفحش وكل أسباب الفتنة والفرقة، وتجنب اللمز والمواربة والعناد، وكل طرق الاحتيال والتذليل.

ج. المناسبة والملاءمة في الكلام: ما دام الغرض من الكلام هو الإعلام والإفهام فيجب توخي المناسبة فيه بأن تأتي به في موضعه، فلكل مقام مقال. فلا تورد في كل موضع من الكلام إلا بقدر ما تحتاج إليه.

حاول هابرماس طرح مجموعة من الأسئلة التي عمل على اقتراح بعض عناصر الجواب عنها من خلال مناقشة النظريات التي قاربت مسألة الحقيقة. وأول سؤال طرحه يمكن صياغته كالتالي: ماذا يمكن أن نقول ومن ثم فإن "الحقيقة" هنا تشير إلى الاستعمال والإستقرار لأن الصلاحية المبررة لادعاء ما تضمن تحقيق انتقادات يحدثها إدعاء معين.

أما السؤال الثاني: الذي اقترب منه هابرماس فهو متعلق بما يسمى بنظرية الحقيقة التكرار ذالك أنه إذا كان صحيحا أن كل القضايا من نوع "ب صادقة" فإن تعبير "هي صادقة" غير ضروري من الناحية المنطقية وبالتالي فإن كل النظريات المتعلقة بالحقيقة ليست ضرورية. ومع ذالك يلاحظ هابرماس، أن نظرية الحقيقة– التكرار يمكن أن تعتمد على ملاحظة صحيحة وهي أنه حين نقول بأن "ب صادقة" فإن ذالك لا يضيف أي شيء إلى

الإثبات "ب" لأنه بإثبات "ب" فإنني أعبر عن إدعاء على صدق "ب" وهنا يتجلى المعنى التداولي للإثباتات. إن معنى هذه العلاقة الخاصة بين إدعاء الصلاحية والإثبات الساذج أو المشكوك فيه يمكن إظهار معناه من خلال العلاقة التي توجد بين المناقشات والأفعال ذالك أن هابرماس في إطار ما يسميه ب"النشاط" يدخل مجال التواصل الذي فيه تفترض ونعترف ضمنيا بادعاءات الصلاحية المتضمنة في الملفوظات وفي الإثباتات بهدف تبادل المعلومات فتحت لفظة مناقشة أدخل شكل التواصل المتميز بالبرهنة. وهذا ما يسمح بالإجابة عن السؤال المتعلق بالحقيقة التكرار. ذالك أن هابرماس يرى أنه "حينما نكون أمام أفعال تواصلية، فإن تفسيرا لادعاء الصلاحية معبرة عنها من خلال إثباتات يكون تكرارا، لكنها في المقابل ضرورية في المناقشات.

أما السؤال الثالث: المرتبط بصلب الهاجس الذي يحرك تفكير هابرماس بخصوص الحقيقة، فإنه يتعلق بالفرضية الأساسية لنظرية "الحقيقة–التطابق" وهو يصوغ سؤاله بالطريقة التالية: "ما هي العلاقة الموجودة بين الوقائع التي نثبت وموضوعات تجربتنا؟" ويقول هابرماس إنما يحق لنا إثباته، نسميه واقعا. والواقع هو ما يشكل حقيقة ملفوظ ما، لذالك نقول بأن الملفوظات تترجم وتصف وتعبر عن وقائع". ويعتبر هابرماس أنه في سياق البرهنة يمكن أن نعتمد على التجربة. ولكن لكي نعتمد، منهجيا، على التجربة، في حالة التجريب مثلا، فإننا نضطر للرجوع إلى تأويلات لا يمكن أن تتضح صحتها إلا داخل المناقشة. وبالتالي فإن التجارب تصبح كقواعد استنادا لادعاء الحقيقة التي تعبر عنها التأكيدات. وطالما لا نواجه تجارب غير مطابقة، فإننا نتمسك، عموما بهذا الإدعاء للحقيقة. غير أن هابرماس يرى أن كل ذالك لا يكتسب مصداقيته إلا بواسطة براهين لأن إدعاء مؤسسا على التجربة ليس إدعاء مبررا بشكل مباشر. ويعترف هابرماس أن مفهوم الحقيقة في التراث الفلسفي كان دائما يأخذ بعدا أكثر تجريدا واتساعا مما يسميه ب"حقيقة الملفوظ" وكثيرا ما اتخذت الحقيقة معنى "العقلانية" غير أن هابرماس يحدد ما هو عقلاني ليس فقط بالإثباتات، ولكن أيضا بنماذج أخرى من أفعال الكلام مثل المعايير والأشخاص. ويعتبر هابرماس أن هناك على الأقل أربع أنواع من إدعاءات الصلاحية وهي المعقولية، الحقيقة، الدقة، الصحة وهذه الإدعاءات تشكل كلا يمكن تسميته ب"العقلنة" ولهذا السبب يرى هابرماس أن "نظرية إجمالية للحقيقة" يجب أن لا تقتصر على حقيقة الملفوظات لأن المسألة تدخل فيها اعتبارات الدقة

والصدق والمعقولية.ثم إن الإجماع يكمن، بالضبط في كون هذه الإدعاءات الأربعة يجب أن يكون معترفا بها من طرف المتكلمين المشاركين في المحاولة أو المناقشة.

وهكذا يمكن أن تدعى معقولية التلفظ، وحقيقة تكوينه القضوى، ودقة تركيبه التلفظي وصدق النية المعبر عنها من طرف المتكلم" ومن ثم فإن تواصلا غير استراتيجي، أي ذالك الذي يحصل فيه تفاهم سيجرى بدون اصطدام[200].

ويلاحظ هابرماس أن هذه الإدعاءات الأربعة للصلاحية ليست كلها قابلة لأن تبرر بواسطة المناقشة إذ أنه لا يمكن أن نعتبر "الإستنطاقات" أو الحوارات التحليلية بين المريض والمحلل مناقشات في اتجاه البحث التعاوني عن الحقيقة، لذالك فإن هابرماس يميز "الصدق" بوصفه إدعاء للصلاحية غير خطابي عن إدعاءات الصلاحية الخطابية التي هي "الحقيقة" و"الدقة"، غير أن الأمر لا ينطبق على إدعاء المعقولية.

فعندما تكون القواعد لغة المستخدمة من طرف أحد الأطراف غير واضحة بما فيه الكفاية ولا يفهم القضايا الملفوظة (على المستوى الدلالي، النحوي بل وحتى الصوتي) فإن كلا الطرفين يمكنهما أن يتوصلا إلى اتفاق حول اللغة التي يستعملان بهذا المعنى، فإن المعقولية يمكن أن تحسب مع إدعاءات الصلاحية الخطابية"[201]. ومع ذالك فهناك اختلافات بين مستويات إدعاءات الصلاحية الخطابية. ففي الخطاب اليومي وفي إطار من التفاعل، فإن إدعاءات الحقيقة والدقة تستغل باعتبارها إدعاءات تكون مقبولة أخذا بعين الإعتبار إمكانية تبريرها بواسطة المناقشة عند الإقتضاء، أما المعقولية فهي ضرورة ما دام التواصل يتم بدون صدام وبالتالي فإنها ليست مجرد وعد. لذالك يحسب هابرماس المعقولية من بين شروط التواصل وليس من بين إدعاءات الصلاحية المعبر عنها داخل التواصل سواء كانت خطابية أو غير خطابية، ولذالك فإن هابرماس يرى أنه من الضروري ضبط الروابط الموجودة بين إدعاءات الصلاحية من جهة والنوايا وتجارب اليقين المقابلة لها من جهة ثانية. لأنه حينما أفهم أو أعرف شيئا ما، أو عندما أعترف بصلاحية هذا الشيء، أو حين أصدق شخصا ما، فإنني أكتسب، في كل مرة، أشكالا مختلفة من اليقين، وهي مختلفة لأن إدعاءات الصلاحية تختلف عن اليقين بطابعها الذي تكون فيه الذوات متفاعلة ومتداخلة. ومع ذالك فإن هابرماس يرى أنه حين أعبر عن إدعاء الصلاحية فإنني أكون متيقنا من ذالك، أي أنني

200- نور الدين أفايه، مرجع سابق.

201- حسان الباهي، نفس المرجع، ص:65.

أحوز يقينا من تعبيري عن هذا الإدعاء. ولذالك فإنه يخلص إلى أن الحقيقة تتحدد بالبرهنة مقرا أن البرهنة لا يمكن أن تدعى الوصول إلى مستوى القوة الإجمالية إلا ذا ثبت أنها لا تكتفي بالاعتماد على علاقة ما بين نسف لغوي والواقع، أي على علاقة المطابقة والملائمة.

إن الأمر عند هابرماس لا يتعلق بالالتجاء إلى نظرية الحقيقة –التطابق، وإنما يعتبر أن تقدم المعرفة لا يمكن أن يكون إلا في شكل نقد أساسي للغة، بل إنه يذهب بعيدا في سياق التأكيد على النظرية الإجمالية للحقيقة. فالإجماع هو نتاج مواقف وممارسات متفاوض عليها، وبالتالي فالحقيقة ليست تتويجا لتأمل منعزل كما هو الحال في التراث الفلسفي الميتافيزيقي، كما أنه ليست هناك حقيقة واحدة أو مطلقة، لأن الحقيقة المثالية ليست إلا كذبا أو إدعاءا زائفا يخفى وراءه مصالح محددة.

لذالك فالحقيقة عند هابرماس لا تنفصل عن رهانات الكلام واللغة المتداولة، بل إنما تنبعث من داخل المحادثات وصيغ التبادل، الهادئ تارة والساخن تارة أخرى، الذي يحصل بين الذوات المنتجة للتواصل ومن هذا المنطلق فإن هابرماس« يساهم بنظريته الإجمالية للحقيقة في "جنازة" الحقيقة المتعالية وفي الوهم الدائم بامتلاك الحقيقة الواحدة ولا سيما في زمن خلقت فيه الحداثة صيغا متعددة للحوار وللصراع ومجالا عموميا له آليات تكشف عن مختلف الحقائق في سياقات ومجالات للقول متحركة دوما»[202].

وفي المحصلة نقول إن النقاش هو أساس التواصل وأن التواصل عند هابرماس غدا الفاعلية الوحيدة التي في إمكانها إعادة ربط الصلة بين أطراف هذا العالم متقطع الأوصال، عالم فقد كل مرجعياته ونقاط ارتكازه، وانقطعت الصلة الحميمة بالإنسان، وعوض التقدم والمحبة والسلام ساد الاستبداد والعنف، حتى صار هذا العنف كما يقول إريك فاي موضوعا محوريا من مواضيع الفلسفة في المرحلة المعاصرة. إن المفارقة الكبرى، وهذه اللحظة ربما تمثل اللحظة الثالثة في تراتبية اللحظات المؤثرة – سلبا– في مبحث فلسفة التواصل، هي أن هذا التواصل الأصيل الذي نفتقده جميعا، وليس هابرماس وحده يتم على مرأى ومسمع من الثورة الكبيرة التي يعرفها عالم الإتصال والإعلام بمعناه الإبلاغي الآلي المباشر. ثورة شملت كل مناحي الحياة في أدق دقائقها، ووصلت إلى أبعد نقاط الأرض وأكثرها انعزالا. أليس هذا التناقض الواضح بين تواصل إنساني مرغوب ولكنه مفقود، وبين وفرة إعلامية

---

[202]– جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ترجمة عمر امهيبل، منشورات الاختلاف، الجزائر 2006، ص:75.

شكلانية جعلت الإنسان أكثر غربة، بل أكثر اغترابا وأقل تواصلا. هنا مكمن الخطر الذي كان قد تنبأ به عالم المستقبليات والسوسيولوجي الأمريكي ألفين توفلر. ومن هنا فإن التجربة التواصلية تأتي من العلاقة التفاعلية التي تربط شخصين، على الأقل داخل العالم المعيش وفي إطار من التوافق اللغوي والتذاوتي. ومن ثم فإن كل شخص أو فاعل يملك القدرة على الكلام والفعل يمكنه أن يشارك في التواصل، وأن يعلن إدعاءاته للصلاحية، لكن شريطة أن يراعي مقاييس المعقولية والحقيقة والدقة والصدق.

إن التجربة التواصلية تأتي من العلاقة التفاعلية التي تربط شخصين على الأقل، داخل العالم المعيش وفي إطار من التوافق اللغوي والتذاوتي. ومن ثم فإن كل شخص أو فاعل يملك القدرة على الكلام والفعل يمكنه أن يشارك في التواصل، وأن يعلن عن إدعاءاته للصلاحية، لكن شريطة أن يراعي مقاييس المعقولية والحقيقة والدقة والصدق. وتأكيد هابر ماس على هذه المقاييس يرجع سببه إلى إلحاحه على قضية التفاهم داخل مجال عمومي حديث لبلورة نوع من "النظرية الإجمالية للحقيقة" من جهة، وإلى حرصه على نسج علاقات تواصلية غير خاضعة لأي نوع من أنواع الضعف والسيطرة من جهة أخرى. ولذالك فإن نظرية الفاعلية التواصلية، بالرغم من تأكيدها على أهمية التفاعل اللغوي أو بسبب هذا التأكيد، فإنها تؤدي إلى التفكير في شروط إمكان ما هو مجتمعي نفسه، وبالتالي إلى التفكير في المجتمع بصفة عامة.

فالهدف من التفاهم هو الوصول إلى نوع من الاتفاق يؤدي إلى التذاوت المشترك وإلى التفهم المتبادل وإلى التقارب في النظرات والآراء وهذه الأبعاد من التذاوت تقابلها ادعاءات للصلاحية تتمثل في المعقولية والحقيقة والدقة والصدق والتي يستند عليها كل شكل من أشكال الاتفاق، ومن ثم فإن"التفاهم هو العملية التي من خلالها يتحقق اتفاق معين على الأساس المفترض لادعاءات الصلاحية المعترف بها باتفاق مشترك.لكن السؤال الملح والكبير إزاء كل هذا هل يمكن قيام إجماع وتواصل حقيقي ؟

3. حدود الإجماع:

يعتقد الفيلسوف أرنست توغندات في مقالته:

Tugendhat. Ernest : Habermas, on Communicative action. In. Philosophische Aufsätge, Suhrkamp, 1992.

بأنه لا يجوز التمييز على نحو ما فعل هابرماس بين الفعل الغائي والفعل التواصلي لأننا عادة ما نتواصل بغية تحقيق شيء آخر (...).

لكن لا يخلو وجود ظروف خاصة تملي التواصل على الناس لأجل التواصل ذاته" ص 434، والتقابل بين الفعلين "هو بالأحرى تقابل بين طريقتين مختلفتين لإخضاع الأفعال

التواصلية لأهداف الواحد منا والآخر" ص 435. والمباحث المرجعية التي تفحص تنظيم الأهداف في مستوياتها الفردية والاجتماعية هي مباحث الفعل والقيم والأخلاق"[203].

ليوتار في كتابه Le Tombeau de l'intellectuel ص 81 يفصح عن الإرهاب العقلاني، من خلال الإجماع التوافقي؛ لدى فلاسفة من أصول أمريكية أحيانا، وإن كانوا من أصل ألماني في معظمهم"[204].

يقول ليوتار: إن ضياع المطلق في الفلسفة منذ فترة الرومانية يجد مقابله في أزمنة الأسس التي اصطدمت بها العلوم الطبيعية الدقيقة" كما يحول لنا نعتها بالعلوم التي تولى طوماس كون وبول فيرابند تشريحها عن قرب.

إن ما ندعوه أزمة الأسس ليس أمرا نستطيع غض الطرف عنه بسير بغية تحصيل إجماع حجاجي مزعوم، في حين نفتقر في الواقع إلى مثل هذا الإجماع حتى في صلب العلوم الفيزيائية ذاتها[205].

يؤكد ليوتار بأن العلم "ملزم بولوج حقبة ما بعد الحداثة، والتوقف مليا عند القضايا الظنية، وبالانكباب على الظواهر التي لا نملك سبيلا إلى السيطرة عليها وعلى الكوانتا وعلى الصراعات الناجمة عن المعلومات الجزئية والجزيئات المنكسرة والكوارث والمفارقات التداولية والتي تفيد علاوة على ذلك بأن العلم ملزم بإلغاء الحدود القائمة بين العقل وما يوجد وراء العقل[206].

يعتقد ليوتار، فضلا عن ذلك، أن البنيوية قد أدلت بدلوها في تكريس إدعاء كاذب بوجود خطاب فوقي كلين من خلال طرح دعوى خاصية الكلية التي نصطدم بها بوضوح لدى كلود ستروس بعد ظهورها في صيغتها المشهورة في كتاب دوسوسير :"محاضرات في اللسانيات العامة"، ويشتركان سوية في هذا مع الإدعاء مع نيكلاس لوهمان صحاب النظرية النسقية ومع هابرماس صاحب التداوليات الكلية[207].

---

[203]. نقلا عن مقدمة عظ العرب لحكيم بناني كتاب مانفرد فرانك: حدود الإجماع والتنازع بيه هابرماس وليوتار، إفريقيا الشرق–المغرب، (د.ط)، 2003، ص 15.

[204]. مانفرد فرانك: حدود الإجماع والتنازع بيه هابرماس وليوتار، إفريقيا الشرق–المغرب، (د.ط)، 2003،. ، ص 21.

[205]. مانفرد فرانك: المرجع نفسه، ص 24.

[206]. مانفرد فرانك: مرجع سابق، ص 24.

[207]. مانفرد فرانك: المرجع نفسه، ص 25.

يقرر ليوتار أنه لا وجود لتداوليات كلية ولا لنحو كلي بحجة تباين الأشكال الحياتية في مظاهرها الحيوية وفي توزعها. إن نسقا مفتوحا يقوم بدل النسق المغلق القائم على تصور كلي، وتحل تعددية الأنساق، دون أن نجد بينها صلة وصل مشتركة توحدها على مستوى خطاب فوقي ما، والذي تمثله مفهومية العقل الكلي، وهي التي تبلورت في فجر عصر النهضة كنموذج حظي بسلطة طاغية في ميدان العلم الطبيعي وفي الفلسفة، واتخذت شكلا مشروعا في الخطابات التالية أي مع عقل مفكري الأنوار والعقل المثالي لدى المثاليين والذات في الطبقة العمالية والمفهومية المنطقية لدى فريحه، والعلمية الكلية لدى هوسرل أو في حلقة فيينا والبنية لدى البنيويين ةالنحاة التحويليين ومنظري نظرية الأنساق والخطاب الكلي الطي لا تمليه سلطة. كما تجسد أخيرا في النظرية التداولية الفلسفية حول الإجماع، وفق ساندرس بيرس ولدى هابرماس وكارل أوتو آبل[208].

إن كل هذه الخطابات، لدى ليوتار، وإن بدت متعارضة فيما بينها من الناحية الأيديولوجية، فإنها تشترك في الدفاع عن الكلية الكونية للصلاحية، وعن الطموح نحو التحول إلى أداة متجانسة للقول المعقول الذي يصدق على سائر الخطابات المفردة أي على الألعاب اللغوية مثلا.

إن هذا المنظور الكلي، في رأي ليوتار، لا يراعي تعدد الألعاب اللغوية وتباينها، هذه الألعاب التي توجه في صورتها المختلفة حياتنا العامة والخاصة لا تلتقي في لعبة واحدة بينها. إذن فلعبة الاختلاف هي الأجدر بالتأمل بحكم الخاصية الإبدائية التي توجه تغيير المعنى من دعاوى كلية الإجماع الذي يكلل المناظرة. فالأصل هو تغيير الأنظمة المشفرة المتصلبة لا تكريسها كسرديات شرعية.

يرى ليوتار أن إجماع الهيئة العلمية معاد بدوره لروح الابتكار، لأن هذه الهيئة تعفي النموذج المهيمن من مؤونة مواجهة بعض معطيات اللعب غير المألوفة بناء على ذلك يتخذ الإجماع سمات "إرهابية"، ويعني ليوتار "بالإرهاب" الفعالية المترتبة عن إقصاء شريك لك خارج لعبة اللغة التي كنا نلعبها من قبل، أو الفعالية المترتبة عن مجرد التلويح بذلك[209].

هب أننا قد ارتقينا إلى وضعية يعم فيها التوازن بين سائر القوى كالجسد الواحد. آنذاك يستعذر علينا إدخال أدنى تعديل على شيء من الإنسان.

---

208. مانفرد فرانك: المرجع نفسه، ص 26.

209. مانفرد فرانك: مرجع سابق، ص 29.

يعتقد ليوتار أن فكرة مشروع "اللاعقل" هي التي تضمن تحقيق هذه الشروط وهي لاعقل ألعاب لغوية مفردة ومتحررة كلية من أدنى ارتباط بالكل، وهي الألعاب اللغوية التي تحاكي صيغا تنظيمية من قبيل تلك التي نعرفها في الفوضوية أو في النزعات النقابية الفوضوية.

يطلق ليوتار مصطلح Diérrennd على هذا النوع من المواجهة الحربية في المناظرة وفي الحجاج. وعلى خلاف سوء التفاهم (Litige) يجسد التنازع حالة من حالات الصراع بين فريقين (على الأقل)، دون أن يفضي إلى حسم عادل للصراع، يحكم غياب قاعدة حكم تنطبق على صيرورتي الحجاج[210]. " لا نستنتج من مشروعية الموقف الواحد أن الموقف الآخر المضاد غير مشروع كذلك"[211].

ويدلل ليوتار على عدم وجود أرضية للإجماع بقوله "المؤشر على وجود تنازع تعذر تقديم البرهان"[212].

لا تستنبط الإجراءات الهادفة إلى التحقق من الواقع من قاعدة لغوية قبلية مستقلة عن الخطاب كما هو الحال لدى هابرماس، ولا توجد في حالات تعذر تحصيل إجماع هيئة تقريرية ونهائية ولا وجود لقاض تابع للمحكمة الإدارية".

يميز ليوتار بين قواعد استعمال الجملة، وبين أجناس القول أو أجناس الخطاب". فإن أي استعمال للجملة يتبع قاعدة في ذلك، ينجم التشابك الحاصل بين جمل متعددة عن أجناس من الخطاب، وشاهد ليوتار هو أن نجاور شخصا آخر. هنا تتشابك جمل ذات قواعد استعمال "متباينة" مثلا يحدث تشابك بين أفعال الاستفهام وأفعال الإشارة أو أفعال الوصف.

إن ما يدعوه ليوتار "أجناس القول" يبدو متفقا تماما مع ما ظل يحيل عليه في كتاب "حقبة ما بعد الحداثة" مستعملا مصطلح الألعاب اللغوية لفدجنشتاين. ومن المعروف أن إحدى الخصائص المميزة لهذا المصطلح هي أنه ذو وجوه متعددة لا تقبل الاختزال، كما يرى فدجنشتاين ذلك، وأنه ذو طبيعة مشتتة، كما يذهب ليوتار إلى ذلك[213].

---

[210]. مانفرد فرانك: المرجع نفسه، ص 35

[211]. مانفرد فرانك: المرجع نفسه، ص 36

[212]. مانفرد فرانك: المرجع نفسه، ص 38

[213]. مانفرد فرانك: مرجع سابق، ص 67

يقصد كل من ليوتار و فدجنشتاين بأن الأفعال اللغوية لا تقبل الاستنباط من "لغة" ما بعموم القول، كما يرى ليوتار أو من نظام فوقي يحيط بكل الأنظمة الجزئية كما يعبر فدجنشتاين عن ذلك.

يتجاوز التحول اللغوي إلى التحول التداولي الضعيف بناء على المجال المشترك وبصرف النظر عن المقام "تستطيع أن تأتي لزيارتي" حيث قد يصبح المقصود بالكلام هو القدرة على المجيئ أو معرفة العنوان أو احتمال القيام بزيارتي أو رغبتي في زيارتك أو إذني لك بذلك أو أشياء أخرى غير ذلك.

وكما أن جملة "الباب مفتوحة على مصراعيها" قد تكون وصفا لواقعة كما قد تفهم كطلب مني لإغلاقها، بحكم إصابتي بالزكام. فلن يفهم الجملة من يكتفي بمضمونها، فالواجب هو التعرف على القصد من إصدارها.

ففعل اللغة لا يتحول إلى جملة أي إلى وحدة لسانية، بل إلى وحدة تداولية أي أن ليوتار لا يعني القواعد التركيبية المعجمية (بالمعنى اللساني)، بل يقصد نلك القواعد التي تحدد المعنى الاستعمالي لما قيل في الجملة.

فالجمل أنماط: وصفية وطلبية وتقويمية واستفهامية تنتظم إلى جانبها سلسلة، يدعوها ليوتار قواعد استعمال الجمل (régimes de phrases) مثل الرد والخواطر وفعل الحجاج[214].

إذن لا وجود لجنس أعلى أو قاعدة خطابية عليا تحول كل أجناس الخطاب إلى نص منسجم ولا وجود لقاعدة استعمال للجمل تنطبق على كافة الجمل، وما دام الأمر كذلك فأدنى ربط محتمل بين وحدات الخطاب يصبح أمرا غير مشروع بالمرة.

يحيل ليوتار على كانط الذي ركز من جهته على التناظر الحاصل بين القواعد المختلفة لاستعمال الجملة، أي على التنافر بين الخطاب الواصف أو العقل النظري، والخطاب الطلبي أو العقل العملي، القول حول الصلة بين الشيء في ذاته وبين الحساسية والقول حول الصلة بين الحساسية أو ملكة التقبل وبين الفهم أو الملكة التلقائية[215].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يميل على فتغشنتاين، فإلى هذا فالفيلسوف يعود الفضل في تحقيق إنجازين عملاقين: أولهما اكتشاف أن دلالة حد من الحدود مرتبطة

---

214. مانفرد فرانك: المرجع نفسه، ص 43
215. مانفرد فرانك: المرجع السابق، ص 48.

باستعمال الحدــ وثانيهما اكتشاف أن قواعد استعمال الجملة قد تصبح متباينة فيما بينهما إلى درجة لا سبيل إلى تجاوزها ومتنوعة قد تنوع الألعاب اللغوية وتباينها[216].

لقد تحدث بوبر عن ذات الشيء بصيغة تفيد عدم استقلالية ملاحظات وقائع الحال عن النظرية، ويتنبأ بفشل أي تذرع إبستيمي معرفي بوجود أسس صلاحية نهائية وإيجابية فشلا ذريعا وهذا انطلاقا من نقده الموجه إلى الأماني العلمية الساعية إلى تقعيد المعارف العلمية على التجربة.

لا يفرق هابرماس في نقده للوضعية وبصورة غامضة وفضفاضة بين مختلف التيارات الوضعية، فمحيلا لنا ألبير يؤكد بوتومور أن هابرماس قد كرس مقالين من مقالاته في الستينات لإعادة توجيه وتقديم الاعتراضات على الوضعية، مثلما جرى في كتابات أدورنو وهورهايمر وماركيوز بطريقة فضفاضة وغامضة للغاية، دون التمييز مثلا بين وضعية القرن 19، وبين الوضعية المنطقية لحلقة فيينا، والعقلانية النقدية التي تبناها كارل بوبر والواقعية الحديثة[217] ووضعها كنقيض للنظرية الجدلية. ويحيلنا بوتومور في هذه النقطة إلى هانز ألبرت.

ويؤكد جون جراندان أنه يمكننا معارضة هابرماس على أكثر من مستوى في كون اللغة لا تستهدف دائما التفاهم بحكم تحريكها من أجل غايات المزايدة أو الخداع وإدعاء التفاهم، إلا أننا في الحقيقة على عكس ذلك تماما أي نروم أهدافا مختلفة أو ستعارضه[218]. فهابرماس يثق ثقة عمياء في اللغة وهي لعوب لا أمان معها فهي لا تعني دائما التفاهم فهي توظف لأغراض التلاعب والخداع، فليست كل الأفعال تواصلية بالضرورة، فقد أتصرف وفق ما تمليه علي مصالحي الخاصة دونما اكتراث بالآخرين، وبأي تفاهم معهم.

لذا نلقى هابرماس مدركا تمام الإدراك لهذه الإشكالية، فقد أطلق على هذه الظاهرة اسم الفعل الاستراتيجي أي الذي يوهمنا أنه تواصلي ولكنه في الحقيقة مجرد إستراتيجية أو تكتيك مرحلي كما يقال...من أجل مصلحة معينة. هذا الذي يتجه حسب هابرماس إلى هدف

---

[216]. **Lyotard, la diffrend op.cit.p12.**

[217]. **توم بوتومور: مدرسة فرانكفورت ترجمة سعد هجرس، مراجعة حافظ دياب، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية، طرابلس ليبيا ط2 صيف 2004، ص 104.**

[218]. **جون غرندان: العقلانية والفعل التواصي عند هابرماس، ترجمة سعيد علوش، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي بيروت، لبنان، ص 28.**

لا يتعلق بتاتا بأي تفاهم بينذاتي. حتى أن هابرماس يعرف الفعل التواصلي بمعارضته مع هذا النوع من الأفعال – أي الاستراتيجي –.

غير أن هابرماس يستقر على مفهوم واسع جدا، إذ يرى أن الفعل هو ذلك السلوك الذي نسلكه لكي نصل إلى غاياتنا المحددة في تصوراتنا سلفا، فقليلا من الواقعية وحد أدنى من التجربة الإنسانية يؤكدان لنا أن ليس هناك فعل خلو من الإستراتيجية، فحتى أكثر المبادئ إيغالا في عالم الفضيلة لا تخفى توجيهاتها أو ميولاتها النفعية.

كما أن إستراتيجية الفعل التواصلي في حد ذاته لا يخلو من الإستراتيجيات فكل تناسب مستوى معينا من التطور اللغوي والدلالي بل والاجتماعي أيضا. بل حياتنا العصرية في ظل التطورات المتسارعة في الفروع المعرفية المتعددة تأخذ هي أيضا شكلا من أشكال الإستراتيجية، وتحديدا تلك التي تتجسد في الشكل البرلماني (النيابي)، وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن إمكانية وجود فعل تواصلي ابتداء"[219].

إن توضيحات هابرماس للفعل التواصلي ومعاييره لا تبدو مقنعة، فالتفاهم الذي نظر له وحشر له كل ذلك الكم الهائل من الركائز الفكرية والمنهجية والقيمية والعلمية، إنما كان من أجل النسق المتعلق بخطط العمل المرتقبة والمرتكزة على مفاهيم الاتفاق والإجماع بين المشاركين في التواصل ولم تكن تهدف إلى نجاح المشاركين في شيء، وهذا بالضبط ما جعل بعض الشراح يتهمونه بالإيغال في الاستنتاجات النظرية العامة، ولم يلامس القضايا عن كثب فهذا جراندان يؤكد أن القارئ لكتاب ضخم ذي 1175 صفحة، والمعنونة بنظرية الفعل التواصلي "إننا نأسف لغياب تقديم تركيبي لهذا المفهوم في كناب يظهر أنه كتب خصيصا للتعليق النقدي لفلاسفة آخرين أو علماء اجتماع، بدل القيام بذلك فيما يخص أداوته النظرية، ففي كامل العمل لا نجد سوى تعريف للأفعال التواصلية.

كما يؤخذ على هابرماس في الغالب تضخيم الحاجيات النظرية أو الإدراكية للتطبيق وإذا كان الأمر كذلك فالاتهامات بالطوباوية الموجهة منذ عقدين(*)ضد التأسيسات الفلسفية

---

[219]. جراندان: مرجع سابق، ص 25.

(*). يقصد جراندان، بالنظر إلى زمن صدور مقالته (1986) ،بالعقدين فترة الستينات والسبعينات عموما وكذلك فترة بداية بروز افكاره وبالأحرى نظريته.

لهابرماس، تظهر مبررة بما فيه الكفاية[220].فمفهوم الفعل التواصلي يمثل حالة افتراضية طوباوية أكثر منها واقعا بذاته.

وبدعوته بالعبور من نموذج تأملي أحادي إلى مخطط بينذاتي (تذاوتي) أي من فلسفة الوعي إلى تحليل اللغة في مظهرها التداولي، مستوحيا فكر هربرت ميد G.H. Mead ذلك لا يخلصه من الحقيقة الحدسية فإننا هنا نجر الفلسفة وراء العلوم الاجتماعية، وهابرماس لا يمنحها هنا أي حجة لتوضيح أن على فلسفة الوعي أن تتنحى إذا ما تموضعنا في مستوى تذاوتي[221].

أي أن الأذواق والذاتيات إذا ما دخلت واقعا بينذاتيا تداوليا فإن ذلك آذان يزوال أي بعد أو مسحة حدسية ذاتية.

يتشابه دريدا وأدورنو في تحسسهما من النماذج المغلقة الشاملة، ولهذا يشدد كلاهما على أولوية التصويري (Allégorique) على الرمزي (Symbolique) ، أولوية الكتابة (Métonymie) على المجاز (Métaphore)، أولوية الرومانسي على الكلاسيكي. كلاهما

[220]. جان جراندان: مرجع سابق، ص 26.
[221]. جان جراندان: المرجع نفسه، ص 26.

يستعمل الجزء بمثابة صورة تقديم ويرميان بالشك كل نظام. إنهما يلتقيان في تطرفية سلبية ويكتشفان الأساسي في الهامشي والثانوي، والحق إلى جانب المتمرد والمدان، والحقيقة في المحيطي والمشبوه[222].

إن عمل التفكيك المتمرد يرمي بالفعل إلى هدم التسلسل المألوف للمفاهيم الأساسية وقلب علاقات التأسيس وعلاقات السيطرة بين الكلام والكتابة، بين المعقول والمحسوس، الطبيعة والثقافة، الداخلي والخارجي، الروح والمادة، الرجل والمرأة، المنطق والبلاغة...يسعى دريدا بشكل خاص إلى قلب أولوية المنطق على البلاغة، أولوية كانت مقدمة منذ أرسطو.

يقوم دريدا بنقد للأسلوب، مستخلصا في فائض الدلالة الخاص بالمسافات الأدبية لنص غير أدبي بطموحاته، مستخلصا شيئا يشبه رسائل غير مباشرة حيث يكذب النص ذاته مضمونه المتجلي بهذه الطريقة يقوم دريدا بإرغام نصوص لهورسل، لسوسير أو روسو على تقديم اعترافات رغم الفكر المعلن لمؤلفيها، أن تناقض ما تعلنه مثل أولوية الدلالة على الإشارة المؤكدة بشكل معلن، أولوية الصوت على الكتابة، أولوية المعطى الحسي والحاضر المباشر على الفارق المؤجل (Différence différée)[223].

يقرر دريدا في نقاشه مع جون سيرل (J. Searle) أن كل محاولة لرسم حدود الميدان اليومي للغة السوية مقابل الاستعمال "غير المألوف"، "المختلف" مقارنة بالحالات المقننة لا يسعها إلا أن تخفق وتفشل وتقع في فخ أو تتوه كما في هاوية[224].

ثمة إشارة مكتوبة تتقدم في غياب المرسل إليه..يجب أن يصبح غيابه مطلقا حتى تتكون بنية الكتابة. أن يكون قابلا للتكرار Itérable لبناء العلامة الكتاب نفسها[225].

إن دريدا يعارض أوستين وسيرل، ويؤيده في ذلك جوناثان كولر في فكرة إمكانية قيام نمذجات (Idéalisation) أي تحديد شروط عامة لسياقات الكلام والتي تسمح بالنجاح المتحقق في المنطوق لأفعال الكلام مقننة. لكن سيرل قد قام بهذا العمل، وتتمثل هذه الشروط

---

[222] . هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، مرجع سابق، ص 290.
[223] . هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، المرجع نفسه، ص 292.
[224] . جاك دريدا: توقيع، حدث، سياق، ترجمة ومراجعة فريق مركز الإنماء القومي، مجلة العرب والفكر العالمي، ع10، ربيع 1990، مركز الإنماء القومي، بيروت–لبنان، ص 95.
[225] . جاك دريدا: المرجع نفسه، ص 87.

في: الصحة والصدق وتعرف المستمع على القصد باللغة المستعملة[226]. وكما رد على هذه الصعوبة تحدديه المعنى الحرفي لجملة لا يحدد كليا شروط مصداقية فعل الكلام الذي يستعمل فيه، ولكنه يرتبط بالإضافة الضمنية التي يقدمها نظام افتراضات مسبقة في الأساس فيما يتصل بسواء الشروط العامة للعالم، وهذا ينسف دعاوى دريدا بنسبية الدلالة، ويؤسس لقيم فهم مؤسس مكون للعالم المعيش يشارك فيه معنيون يعتمدون بحق على شروط عالم يفترض كونه سويا، داخل طائفتهم اللغوية. فعنا نمذجة قائمة دون تعسف متمركز على العقل "بل بمقدار ما ينبغي أن تكون الفاعلية التواصلية ممكنة بشكل عام"[227].

احتج كل من دريدا وكولر بالفكرة القائلة بأن "كل قراءة هي إساءة قراءة (Every reading is misreading)" أي أنه إذا كان من الممكن فهم نص، فإن هذا الفهم، من حيث المبدأ قابل للتكرار عند قراء مختلفين وفي ظروف متنوعة. وبالتالي فإن أفعال القراءة أو الفهم ليست متماثلة، فكل فهم هو حالة خاصة من الفهم الخاطئ.

يرد هابرماس على هذه الدعوى بأن إنتاجية وسيرورة فهم لا تطرح مشكلة مادام المعنيون يمسكون بنقطة ارتكاز لتفاهم فعلي ممكن، يمنحون بواسطته الدلالة نفسها للعبارات نفسها[228]. بمعنى أنه توجد أرضية للاتفاق والإجماع، رغم ما يبدو من مبررات اختلاف وتنازع وسوء فهم وهذا ما أكد عليه غدامير حين بين أن الجهد التأويلي الذي يسعى إلى تجاور المسافات الزمنية والثقافية يستمر في التوجه نحو اتفاق ممكن.

وتحت ضغط الممارسة اليومية للتواصل الذي يلزمنا باتخاذ قرارات لا يمكننا أن نتخلى – حسب هابرماس – عن اتفاق يسمح بتنسيق الأفعال، وبالتالي فقيام حالة مثالية للاتفاق والإجماع ممكن انطلاقا من أرضية بينذاتية.

فاللغة لدى هابرماس لا تجعل من نظرية الألعاب اللغوية منطلقا ومبررا للاختلاف إنما على العكس من ذلك، فألعاب اللغة لا تعمل إلا لأنها تفترض عمليات نمذجة تتجاوز مستوى اللعب إلى منظور اتفاق قابل للنقد باسم مطالب المصداقية وذلك شرط لكل تفاهم ممكن.

---

[226] . انظر جون سيرل: العقل، اللغة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، الدار العربية للعلوم، ومنشورات الاختلاف والمركز الثقافي العربي، ط1، 2006، ص ص 213-214.
[227] . هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، ص 305.
[228] . هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، ص 306.

ومن جهة أخرى يرفض هابرماس حصر اللغة في الوظيفة الشعرية، فـ"الوظيفة الشعرية ليست الوظيفة الوحيدة لفن اللغة، إنها وحسب الوظيفة السائدة المحددة"[229].

فالألسنية التي تعالج الوظيفة الشعرية لا يمكنها تحديد نفسها بالبعد الشعري، ويصدق هذا على رومان جاكوبسون، وفي مقابل ذلك يدافع هابرماس على قوة المنطوق أي البعد التواصلي في اللغة، وإبراز دلائل قوة اللغة العادية ورفض أي مسعى لجعلها تخيليلية، كما يفعل فلاسفة ما بعد الحداثة وعلى رأسهم دريدا.

يقول هابرماس :"إن تحييد قوى الإلزام تخلص الأفعال التي تؤدي في المنطوق المستبعدة من الضغط الذي تمارسه عليها ممارسات التواصل اليومية التي تلزمنا باتخاذ القرارات، وتبعدها عن دائرة القول العادي وهكذا تمنحها قدرة إبداع عوالم جديدة...إن هذا التخصص – لا بد – بوظيفة الانفتاح على العالم الخاص باللغة، يفسر السمة الخاصة الذاتية–المرجع (Autoréférentialité) المميزة للغة الشعرية، التي حدد عليها جاكبسون"[230].

بمعنى أنه يتم حرف اللغة بعدها الأصلي المتعلق بالعالم، أي البعد التوالصي وقصرها على بعدها الداخلي، الشكلي، الشعري.

إن هابرماس يسعى لإعادة الصلة بين اللغة والعالم، وينأى بها عن تلك النزعات التحليلية الشكلية التي جعلت اللغة مجرد بنية فارغة من كل مدلول خارجي عملي بينذاتي، واستعادة القوة الإلزامية لفعل المنطوقات والتي تسمح بتنسيق الأفعال.

لقد حصر ديردا اللغة في بعدها الشعري البلاغي، أي تصرف كما او كانت اللغة، بشكل عام، محددة بالاستعمال الشعري، أي بوظيفة الانفتاح على العالم، وبهذا تلتقي اللغة مع الأدب أو مع الكتابة. يؤكد هابرماس أن ديردا " بسبب ظرفيته الجماعية المتطرفة لا يرى أن الممارسة اليومية للتواصل تسمح بتشغيل بعض سيرورات التعلم حيث يترتب على قوة الانفتاح على العالم، والخاصة بلغة التفسير أن "تقدم براهينها""[231].

ويضيف أن دريدا يهمل طاقة الرفض والمناسبة التي توفرها مصداقية الفاعلية الموجهة نحو التفاهم"[232].

---

229 . **هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، مصدر سابق، ص 309.**

230 . **هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، المصدر نفسه، ص ص 310 ، 311.**

231 . **هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، المصدر نفسه، ص 316.**

232 . **هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، المصدر نفسه، ص 317.**

يناضل هابرماس ضد كل هذا الطرح الذي يرفض كل صورة نهائية للواقع، ويقيم حركة نفي لانهائية للعالم، ويؤكد هابرماس إمكانية قيام دعاوى صلاحية لا تقوم على معطيات الحس ولا على أحكام بديهية، بقدر ما تقوم على الحجج، ومن ثم الارتقاء بالحجج إلى المستوى الفوقي النهائي الذي يمتلك أهلية ومشروعية التقرير فيما هو موجود ويتشبث هابرماس بالتفاؤل بأننا مازلنا مطمئنين إلى هذا المستوى الفوقي النهائي للتخاطب، وبالتالي التمسك بأفق الإجماع المعرفي الإدراكي وفق تداوليات كلية، أي وجود بنيات تبلغ منتهى العموم والإحاطة أو وجود شروط كلية للتواصل الذي يعتبر الهدف الرئيسي الذي يسعى إليه كل حور. فهابرماس يعترف بوجود دعاوى صلاحية داخل القول، مما يؤهلها لتبني طابع كلي. فالتداوليات الكلية تكتفي بإظهار الشروط الضمنية التي تلزم أطراف الحديث بالإقرار بها: الصدق، الجدية، والصحة إضافة إلى وضوح القول. وهذه تقابل فئات الأفعال اللغوية التمثيلية والتعبيرية والتنظيمية.

خاتمـــــــــة

إذن بعد هذا المشوار الطويل مع هابرماس نصل إلى تأكيد أن مشروع هابرماس بأسره مبني على فكرة الثقة في اللغة باعتبارها تواصلية في الأساس وليست تنازعية ، فقدرتنا على التواصل ذات بنية وقواعد أساسية لاتوجد إلا في رحمها ، والتجربة التواصلية ليست هي القدرة على إنتاج جمل تخضع لقواعد معينة ، وليست نسقا من الرموز له تركيبه النحوي ومعجمه وصوتياته..أو له خصائصه الدلالية فقط ، ، بل هذه التجربة لها خصائصها التداولية ، فهي نسق من القواعد تساعد على توليد تعبيرات لدرجة أن كل تعبير مصاغ بشكل صحيح يعتبر عنصرا من عناصر اللغة . ومن فإن الذوات القادرة على استعمال هذه التعبيرات تشارك طبيعيا في العملية التواصلية باعتبارها تفهم الخطاب. فاللغة إذن تتشكل من خلال التفاعل بين الذوات.

رغم اعتراض الكثيرين على التداولية الصورية ونظرية الفعل التواصلي واتهامها بالعقم والطوباوية وبالثقة المفرطة في إمكانية بناء أرضية للتفاهم، على اعتبار أن اللغة لا تعني دوما التفاهم فقد توظف للخداع والزيف والتلاعب ، فقد يدعي بعضنا التفاهم لكنه في الحقيقة كان يضمر نية أخرى تماما ، رغم هذا إلا أن هابرماس متفائل بقيام أخلاق تواصلية وإجماع حقيقي بعيدا عن كل إكراه أو طفيلية بشرط التقيد بمعايير الصلاحية ، إضافة إلى هذا فهابرماس لا يهمه نجاح المشاركين في النقاش بقدر ما يهمه التنسيق المتعلق بخطط العمل المرتقبة والمرتكزة على تعريفات متفق عليها من قبل المشاركين في العملية التواصلية .و رغم أن التداولية التواصلية حالة افتراضية أكثر منها واقع متحقق ، إلا أن ذلك ليس مبررا كافيا للتنازل عن هذا المشروع ، باعتبار صاحبه يدافع عن تواصلية عقلانية ، إضافة إلى أن العقل إمكانية تحتاج إلى توجيه ، والحداثة مشروع لم يكتمل بعد ، فهابرماس لا يتحدث عن عقل ناجز جوهري مكتمل بقدر ما يتحدث عن إمكانية أو مخزون من العقلانية ، يتحدث عن عقلنة لا عقل..وبالتالي فالهدف هو إعادة تشكيل نظرية نقدية للمجتمع قائمة على معايير شرعية تستند إلى إجماع حقيقي بين أفراد أحرار من كل الإكراهات والسلطات القاهرة والتي تمنع أي حوار بين الذات وذاته وبينه وبين الآخرين. وتأسيس هذه المعايير يستند إلى مفهوم الفعل التواصلي الذي يقطع مع ميتافيزيقا الفرد والجماعة التي كرستها فلسفات الوعي المثالية

والتجريبية ، الليبرالية الرأسمالية والاشتراكية الشمولية والتين ولدتا نماذج للهيمنة والقهر والإرهاب : الشوفينية الستالينية والنازية الهتلرية .

من هنا تظهر تباشير تفاؤل في ظل خراب صنعته يد الأداتية مستغلة كل إمكانات العقل لصالح غائية طفيلية ،يحاول هابرماس إزاءه استغلال هذه الإمكانية للانتقال من فكر أحادي مونولوجي إلى مستوى التفكير البينذواتي ، ومن فلسفة الشعور والمفهوم إلى تحليل اللغة في تجليها البراغماتي التداولي.

خـــاتمــــــــــــــة

خاتمة:

إذن بعد هذا المشوار الطويل مع هابرماس نصل إلى تأكيد أن مشروع هابرماس بأسره مبني على فكرة الثقة في اللغة باعتبارها تواصلية في الأساس وليست تنازعية ، فقدرتنا على التواصل ذات بنية وقواعد أساسية لاتوجد إلا في رحمها ، والتجربة التواصلية ليست هي القدرة على إنتاج جمل تخضع لقواعد معينة ، وليست نسقا من الرموز له تركيبه النحوي ومعجمه وصوتياته..أو له خصائصه الدلالية فقط ، ، بل هذه التجربة لها خصائصها التداولية ، فهي نسق من القواعد تساعد على توليد تعبيرات لدرجة أن كل تعبير مصاغ بشكل صحيح يعتبر عنصرا من عناصر اللغة . ومن فإن الذوات القادرة على استعمال هذه التعبيرات تشارك طبيعيا في العملية التواصلية باعتبارها تفهم الخطاب. فاللغة إذن تتشكل من خلال التفاعل بين الذوات.

رغم اعتراض الكثيرين على التداولية الصورية ونظرية الفعل التواصلي واتهامها بالعقم والطوباوية وبالثقة المفرطة في إمكانية بناء أرضية للتفاهم، على اعتبار أن اللغة لا تعني دوما التفاهم فقد توظف للخداع والزيف والتلاعب ، فقد يدعي بعضنا التفاهم لكنه في الحقيقة كان يضمر نية أخرى تماما ، رغم هذا إلا أن هابرماس متفائل بقيام أخلاق تواصلية وإجماع حقيقي بعيدا عن كل إكراه أو طفيلية بشرط التقيد بمعايير الصلاحية ، إضافة إلى هذا فهابرماس لا يهمه نجاح المشاركين في النقاش بقدر ما يهمه التنسيق المتعلق بخطط العمل المرتقبة والمرتكزة على تعريفات متفق عليها من قبل المشاركين في العملية التواصلية .و رغم أن التداولية التواصلية حالة افتراضية أكثر منها واقع متحقق ، إلا أن ذلك ليس مبررا كافيا للتنازل عن هذا المشروع ، باعتبار صاحبه يدافع عن تواصلية عقلانية ، إضافة إلى أن العقل إمكانية تحتاج إلى توجيه ، والحداثة مشروع لم يكتمل بعد ، فهابرماس لا يتحدث عن عقل ناجز جوهري مكتمل بقدر ما يتحدث عن إمكانية أو مخزون من العقلانية ، يتحدث عن عقلنة لا عقل..وبالتالي فالهدف هو إعادة تشكيل نظرية نقدية للمجتمع قائمة على معايير شرعية تستند إلى إجماع حقيقي بين أفراد أحرار من كل الإكراهات والسلطات القاهرة والتي تمنع أي حوار بين الذات وذاته وبينه وبين الآخرين. وتأسيس هذه المعايير يستند إلى مفهوم

الفعل التواصلي الذي يقطع مع ميتافيزيقا الفرد والجماعة التي كرستها فلسفات الوعي المثالية والتجريبية ، الليبرالية الرأسمالية والاشتراكية الشمولية والتين ولدتا نماذج للهيمنة والقهر والإرهاب : الشوفينية الستالينية والنازية الهتلرية .

من هنا تظهر تباشير تفاؤل في ظل خراب صنعته يد الأداتية مستغلة كل إمكانات العقل لصالح غائية طفيلية ،يحاول هابرماس إزاءه استغلال هذه الإمكانية للانتقال من فكر أحادي مونولوجي إلى مستوى التفكير البينذواتي ، ومن فلسفة الشعور والمفهوم إلى تحليل اللغة في تجليها البراغماتي التداولي.

ملحـــق

التعريف بهابرماس*:

يعتبر يورغن هابرماس Jürgen Habermas من أهم علماء الاجتماع والسياسة في عالمنا المعاصر، ومن أهم منظري مدرسة فرانكفورت النقدية. ولد يورغن هابرماس في 18 جويلية 1929 بدسلدورف Düsseldorf ، شمال الراين– ويستفاليا حاليا. بألمانيا والده ايرنست هابرماس كان مديراً تنفيذياً لغرفة الصناعة والتجارة، وصفه يورغن كمتعاطف نازي. تربى هابرماس في أسرة بروتستانتية، ودرس في جامعات جوتنجين 1949–1950، وزيوريخ 1950 – 1951 ، وبون 1951 –1955، ونال درجة الدكتوراه في الفلسفة من بون في 1953 عن أطروحته المعنونة ب: "الصراع بين المطلق و التاريخ في فكر شلينغ"، وهو موضوع ألزمه بدراسة الفلسفة المثالية الألمانية، من كانط حتى هولباخ وهيغل وبقية مفكري الانوار. كان من بين لجنة المناقشة إريك روثاكير Erich Rothacker واوسكار بيكر Oskar Becker.

في 1956، درس الفلسفة وعلم الإجتماع تحت يديّ المنظرين النقديين مثل ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو في معهد البحث الإجتماعي/مدرسة فرانكفورت، لكن بسبب الخلاف بين الاثنين على أطروحته، بالإضافة إلى اعتقاده الخاص أن مدرسة فرانكفورت كانت قد أصبحت مشلولة بالشكوكية والازدراء السياسي للثقافة الحديثة، أنهى دراسته في العلوم السياسة في جامعة ماربورج Marburg تحت يد الماركسي ولفجانج ابيندروث Wolfgang Abendroth. دراسته كانت قد عنونت " التحولات البنيوية للأوضاع الاجتماعية: تساؤلات ضمن أصناف المجتمع البرجوازي. في 1961 أصبح أستاذاً في جامعة بورج، في تلك الفترة كان تحركه غير عادي بالنسبة للمشهد الأكاديمي الألماني،.اقترح كأستاذ استثنائي (أستاذ بدون كرسي) للفلسفة في جامعة هيديلبيرج بتحريض من هانز جورج جادامر Hans-Georg Gadamer وكارل لوفيث k.L.owith. في 1964 عاد إلى مدرسة فرانكفرت مدعوماً من قبل أدورنو لتولي كرسي هوركهايمر في مجال الفلسفة وعلم الاجتماع.

- - جون بوتومور: مرجع سابق، ص160.
- **Philosophies de notre temps coordonne par j.f.dortier, editions sciences humaines, 2000.pp331, 332 et 101-108**

تسلم منصب مدير معهد ماكس بلانك في ستيرنبيرج (قرب ميونخ) في 1971، وعمل هناك حتى 1983، أي بعد سنتين من نشر عمدة أعماله" نظرية الفعل التواصلي". بعد ذلك عاد هابرماس إلى كرسيه في فرانكفورت مديراً لمعهد البحث الاجتماعي. منذ أن تقاعد من فرانكفورت في العام 1993، استمر بنشر أعماله بشكل واسع النطاق.

تتلمذ على يديه العديد من الأساتذة المعروفين الآن. من أبرزهم : عالم الاجتماع السياسي كلوس أوف Claus Offe، الفيلسوف الاجتماعي يوهان ارناسون Johann Arnason، المنظّر الإجتماعي هانز جوس Hans Joas، منظّر التطور الاجتماعي كلاوس ايدير Klaus Eder، الفيلسوف الاجتماعي اكسل هونيث Axel Honneth (المدير الحالي لمعهد البحث الاجتماعي)، الفيلسوف الأمريكي توماس مكارثي Thomas McCarthy، الباحث الاجتماعي جيرمي Jeremy J. شابيرو Shapiro، ورئيس الوزراء الصربي المغتاَل زوران إينديك Zoran indic.

الأعمال الرئيسية:

- التحولات البنيوية للأوضاع الاجتماعية (1962)
- النظرية والممارسة (1963)
- منطق العلوم الإجتماعية (1967)
- نحو مجتمع عقلاني (1967)
- التكنولوجيا والعلم كايديولوجية (1968)
- المعرفة والمصلحة (1968)
- الهوية الاجتماعية (1974)
- التواصل وتطور المجتمع (1976)
- براجماتيات التفاعل الاجتماعي (1976)
- نظرية الفعل التواصلي (1981)
- الوعي الأخلاقي والفعل التواصلي (1983)
- جوانب فلسفية – سياسية (1983)
- الخطاب الفلسفي للحداثة (1985)
- المحافظيّة الجديدة (1985)

- تفكير مابعد الميتافيزيقا (1988)
- التبرير والتطبيق (1991)
- بين الحقائق والمعايير: مساهمات لنظرية جدل القانون والديمقراطية (1992)
- براجماتيات التواصل (1992)
- تضمين الآخرين (1996)
- جمهورية برلين (1997)
- العقلانية والدين (1998)
- الحقيقة والتبرير (1998)
- مستقبل الطبيعة البشرية (2003)
- أوروبا القديمة، أوروبا الجديدة، قلب أوروبا (2005)
- الغرب المنقسم (2006)
- جدل العلمانية (2007).

مصادر ومراجع

قائمة المصادر والمراجع:

1-قائمة المصادر:

أ-باللغة العربية:

1- يورغن هابرماس: جدلية العقل الحديث، مسارات فسفية، ترجمة محمد ميلاد،دار الحوار،سوريا،2004

2-يورغن هابرماس : العلاقة بالعالم ومظاهر عقلانية الفعل في أربعة مفاهيم سوسيولوجية للفعل تر جورج أبي صالح ضمن مجلة الفكر العربي المعاصر شهرية يصدرها مركز الإنماء القومي بيروت ، باريس، العدد 46، 1987

3-يورغن هابرماس، العلم والتقنية كإيديولوجيا، تر، حسن صقر دار الجمل كولونيا ألمانيا، ط1، 2003

4-يورغن هابرماس، الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي ترجمة نظير جاهل ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب- بيروت ، لبنان، 1995.

4-يورغن هابرماس القول الفلسفي للحداثة، ترفاطمة الجيوشي، منشورات وزارة القافة ، دمشق ،سوريا،د ط،1995.

5-يورغن هابرماس، المعرفة والمصلحة، تر: حسن صقر ، مراجعة إبراهيم الحيدري، منشورات دار الجمل كولونيا، ألمانيا،ط1، 2001

ب- باللغة الأجنبية:

1- Jürgen habermas, droit et démocratie, entre faits et normes,tr fr. rainer rochlitz et Christian bouchindhomme,ed,.Gallimard,1997.

2- Jürgen Habermas : La pensée post-Métaphysique, essais philosophiques. Traduit par Rainer Rochlitz, Armond Colin. Paris 1993.

3- Jürgen Habermas J. l'avenir de la nature humaine: vers un eugénisme libéral Tr.fr¸ Christian Bouchindhomme Gallimard. 2003.

4- Jürgen Habermas : Le discours philosophique de la modernité, traduit Chirstian Bouchindhomme et Rainer Rochlitz, édition Gallimard, Paris, 1988

5- Jürgen Habermas : l'exigence critique, le monde de l'éducation août, 2000.

6- Jürgen Habermas: logique des sciences sociales et autres essais, traduit, Rainer Rochlitz, PUF, 6ème édition, Paris, 198.

7- Jürgen Habermas : Vérité et Justification tr.Rainer Raolitz, Gallimard 2001

8-Profiles philosophiques et politiques

قائمة المراجع:

ب-باللغة الأجنبية:

1- Arno Munster : Rasionalité et théorie de l'agir communicationel chez Habermas

2- G. leech: The principal of Arguments, Longman USA 1983

3- Hans. George. Gadamer : Vérité et méthode, édition de seuil, Paris, 1976

3- Henri Piéron : Vocabulaire de la Psychologie, presses universitaires de Frances, Paris, 6ème édition, 1979

3- jean francois dortie et autre ,philosophie de notre temps:coordonne par jean francois dortie, ed, sciences humaines,2000.

3- Jean laplanche et J-B Pontalis : Vocabulaire de la psychanalyse, presses universitaires de France, Paris, 6ème édition, 1978

4 - Marx.K, Œuvres, le Capital. Vol.I. Paris, la pléade Gaillmard 1965, P.998.

5- Paul Laurent Assous et Gérard raulet : Marxisme et Théorie Critique

6- Richard Rorty :Habermas – lyotard et la postmodernité . traduit. Farncois la traveres.in-critique édition de minuit .paris.n 440-441.1984

فهـــــرس

فهـــــــــــــــــــرس

مقدمـــــة